Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصول العقائد في الإسلام

تأليف

السيد مجتبى الموسوي اللاري

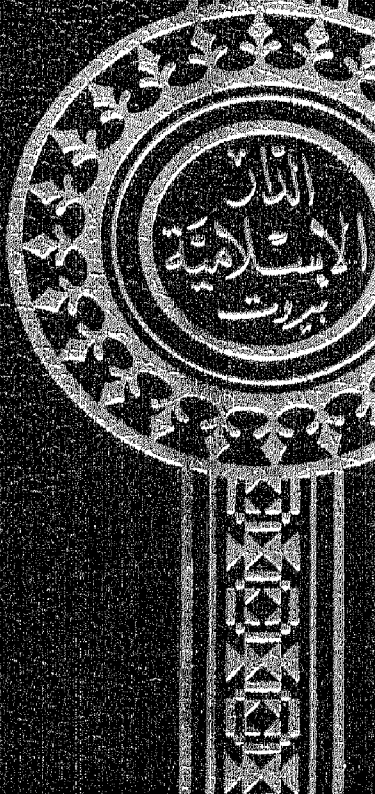

Bibliotheca Alexandrina
0093681

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

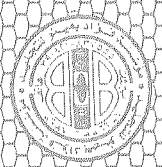

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

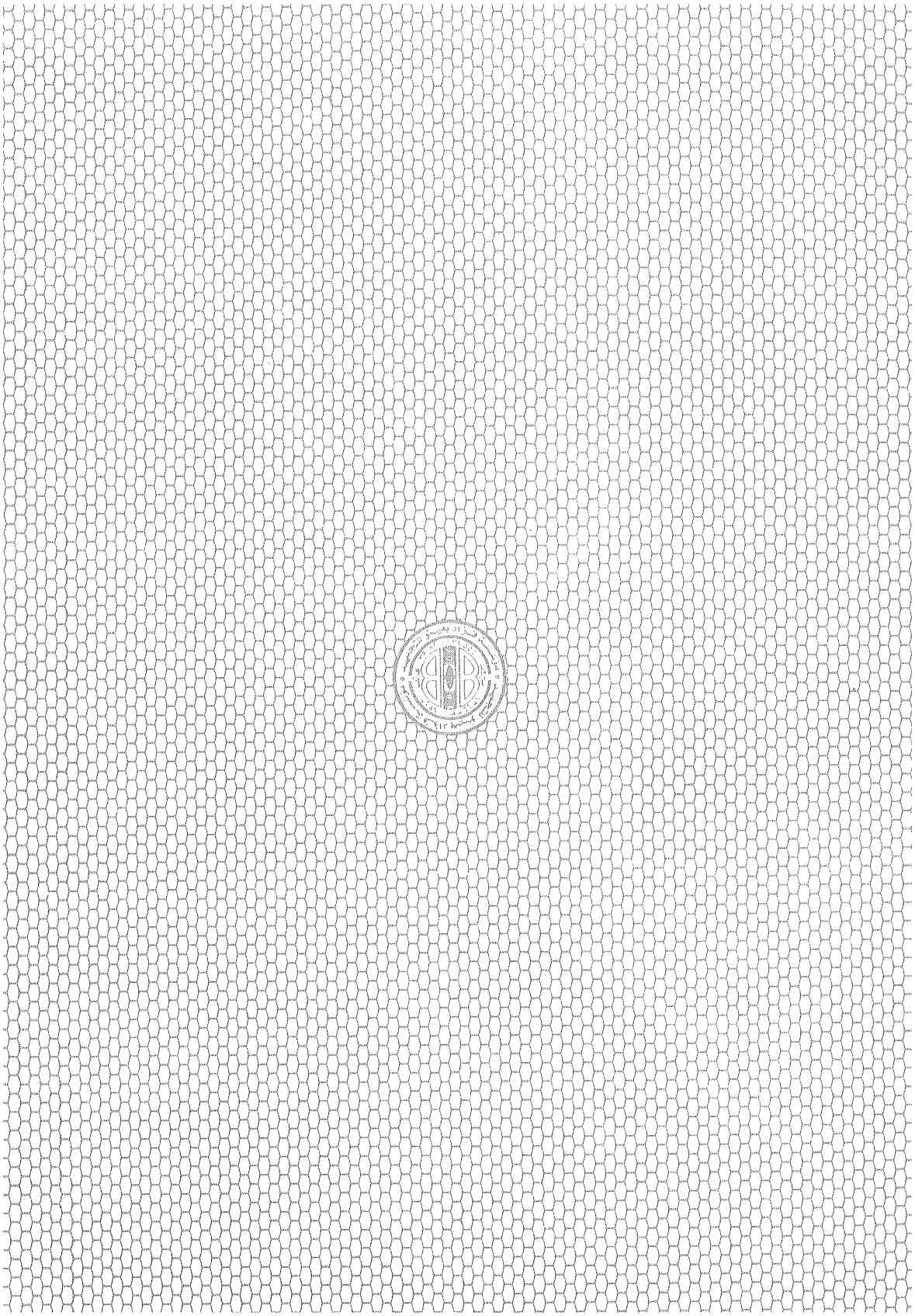

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصول العقائد

في الإسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

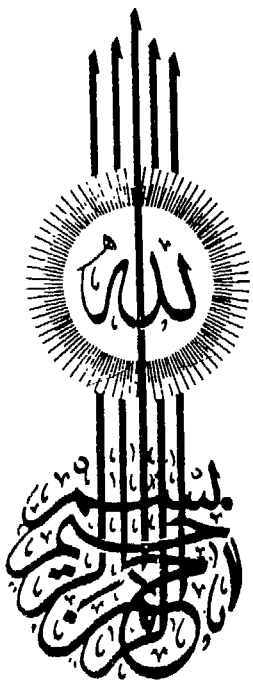

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصول العقائد

في الإسلام

تأليف

السيد مجتبى الموسوى اللارّي

الجزء الأول

تعريب

محمد هادي اليوسفي الغروي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ ـ غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

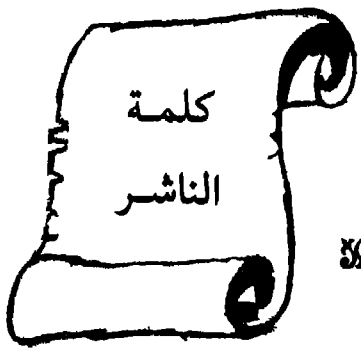

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ .

خلق الله الإنسان ليكون خليفته على الأرض ؛ وجعل من سعادته مشيئةً إلهيّة ، وفيض رحمةٍ ربّانيّة ؛ ووضع هذا الكون على اتّساعه ، والعوالم على رحبها في خدمته ، ورهن منافعه . وشرّع له قانوناً ينظّم حياته ، ويهديه سواء السبيل في دنياه ، لينعم بالفوز والعافية في أخراه .

والله سبحانه لم يخلق هذا الإنسان وهذا الكون عبثاً ؛ إنّما خلقهما لحكمةٍ ساميةٍ اقتضتها مشيئته ؛ فجعل هذا العالم مجاز اختبار لخليفته ، بعد أن خلقه في أحسن تقويم ، وزوّده بسلاح العقل ، وحثّه على التعلّم والتفكّر والتدبّر في هذا الوجود ، المترامية أطرافه ، البعيدة أكنافه .

ثم أرسل إليه الرسل والأنبياء يهدونه إلى الحق ، ويرشدونه إلى الصواب . وأنزل إليه الكتب والشرائع والدساتير السماوية ، يستنير بهديها في مسيرته الدنيويّة ؛ ووهبه حريّة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاختيار ؛ فهو حرّ في اختيار طريقه ، ومسؤول عما يقوده إليه اختياره في واحد من طريقين لا ثالث لهما : فإما الهدى ، وإما الهاوية .

كما اقتضت حكمته تعالى أن يرشد الإنسان إلى الجذور والأصول التي يستقي منها معارفه ، وينهل منها حقائق هذا الوجود ، ليصل عن سبيلها إلى المعتقدات الصحيحة ، السليمة من الشوائب ، والبعيدة عن الانحراف ؛ بعد أن منحه نعمة الفطرة الصافية مشعلاً يهديه إلى النور .

فمن خلال وحدة الكون ـ بكل ما فيه . . من أصغر الذرّات إلى أكبر الأجرام ـ عرف التوحيد ، وسلّم وأيقن بوحدانية الخالق ، وهيمنته المطلقة على هذا الوجود .

ومن خلال مظاهر التوازن في الكون ، الذي ينتظم كل موجود ، والعدالة التي تطبع كل شيء فيه ، عرف قانون العدل الإلهي وعرف الآخرة والمعاد ، والحساب والجزاء .

ومن خلال الرسل والأنبياء الهداة ، عرف رحمة خالقه ، وعرف محبته لخيره وسعادته ، فعرف طريقه إليه .

و(أصول العقائد) بين يديك ، أيها القارىء الكريم ، يتناول في أبحاثه المستفيضة هذه الأمور كلها ، وكثيراً غيرها ، بأسلوب سهل ممتع ، وعرض علميّ قويم ، يبتعد بالأفكار عن مهاوي الانحراف وأوهام الخيال ، ويقودها إلى الحقائق صرفةً صافية ، يعالج ارتباط العقائد بالحياة ، ويخاطب العقل السليم ، يلتقط جواهر الأمور ، ويُعرض عن التوافه والقشور ، يعتمد البحث العقلي والتحليل الفلسفي ، والتفكير الحرّ البعيد عن التشنّج والجمود ، يأخذ بيد القارىء فيصحبه معه ، في

الـطريق الصاعـد إلى الكمال ، إلى قمم المعـرفـة النيّـرة في الطريق إلى الله .

والدار الإسلامية ـ الحريصة على نشر المعارف الإسلاميـة الرفيعة ، والعقائد الحنيفية السليمة ، وإذ عوّدت قراءهـا على إتحـافهم بكل نفيس ، بعـد أن عوّدوهـا على مزيـد اهتمامهم وجميل عنايتهم ـ تتقدم إليهم بهذا السفر القيّم ، مع وافر ثقتها بأنّهم سيردون فيه نبعاً ثرّاً فيّاضـاً ، وسيصدرون عنـه رواءً من عطش ، وشباعاً من سغب .

وعلى الله قصد السبيل .

الدار الإسلامية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة المؤلف

إن ما يبعد الإنسان بصورة تصاعدية عن محور الواقعيات ويرديه في مستنقعات الباطل لهو : « الفراغ الفكري » .

نحن نشاهد اليوم أن قسماً عظيماً من القوى العقلية الخلاقة والمبدعة تذهب هباء وهدراً وهي تغض طرفها عن أغنى وأثرى الأمواج الثقافية والأيديولوجية الدينية ، وأن عدداً كبيراً من الأفكار تذبح على مجازر الأيديولوجيات في العالم الحديث .

تعرض اليوم على الجيل الحاضر والعَطِش للمعرفة من مختلف الطرق والسبل والوسائل أفكار ناشئة ناقصة وعاجلة من نتائج أفكار الفلاسفة والعلماء الماديين ذوي الأفكار المحدودة والضيقة ، أفكار تأمل أن تجيب على حوائج الإنسان ، إلاّ أنه لا معنى ولا مفهوم للحياة فيها ولا هدف ولا غاية .

إن هذه الأفكار الناقصة لا تكون الغذاء الفكري السالم والمناسب لهذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأفكار الحساسة ، بل حتى أنها غير قابلة للعرض عليها قبل أن يموت العقل لديها .

لا شك أن أنواعاً من الظلم والعدوان والعذاب والاضطراب في طول التأريخ تنشأ من المناقضات السائدة في العالم وبخاصة في حياة البشر .

نحن نعتقد بأن الأيديولوجية التوحيدية في الإسلام التي تحتوي على سلسلة من التحليلات الفلسفية والعلمية الواسعة والعميقة عن العالم والواقعيات الخارجية ، والتي تلاحظ الإنسان بجميع أبعاده التي هي له ، هذه الأيديولوجية لها القدرة على حل عقد التناقضات الفكرية ، وعلى هداية البشر نحو البناء والحركات البناءة والمستمرة ، وفي نفس الوقت من الطبيعي لكل عقيدة مهما كانت أصولها ومبادئها عالمية وذات أسس خالدة ، أن تكون بحاجة إلى تعريف جديد لكل جيل جديد ، متناسب مع مقتضيات العصر الحديث .

لهذا السبب يجب على العلماء وحراس الفكر والمعنويات والعارفين بروح العصر والذين يشعرون بالحاجة إلى الحركة السريعة التحقيقية حول البحوث الأساسية في مواجهة مستحدثات ومستجدات عالم العلوم والفلسفات . . على هؤلاء أن يلاحظوا المسائل المختلفة ملاحظة دقيقة مقارنة مع المنابع الإسلامية الأصيلة بصورة جدية وواسعة ، ثم يضعوا الحقائق الناتجة من هذه الملاحظات كيفما تقتضي الرؤية الإسلامية الشاملة أمام أعين العالم فيعرفوه بأصول الإسلام الفكرية .

وهذا الكتاب بين يديك مختصر حاولت أن يكون : « دورة عقائدية » نلاحظ فيه تحريراً لأصول العقائد الإسلامية بصورة حية نابضة يراعى فيه جانب الاستدلال ولا يغفل فيه عن سهولة العبارة وسلاسة الأسلوب ، وكان أكثر همنا أن يعرض الكتاب بحجم صغير ميسر للإفادة ، ولذلك أمسكت فيه عن نقل الأفكار والآراء ونظريات الفلاسفة والعلماء بصورة تفصيلية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والآن ، حيث يطبع الجزء الأول من البحوث المذكورة محتوياً على « التوحيد والعدل » نأمل أن يقع منكم أيها القراء الأعزاء موقع القبول كخطوة مهما كانت قصيرة في سبيل عرض مواقف الإسلام على صعيد المسائل الأساسية بل : « البنية التحتية » لهذا المبدأ الإلهي العظيم ، ومن حسن الحظّ أن الكتاب يطبع في ثلاث لغات:هذه وهي العربية وأخرى فارسية ، وثالثة بالإنجليزية ، نأمل أن نوّفق لنشرها جميعاً إن شاء الله تعالى وهو الموّفق والمعين .

مجتبى الموسوي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

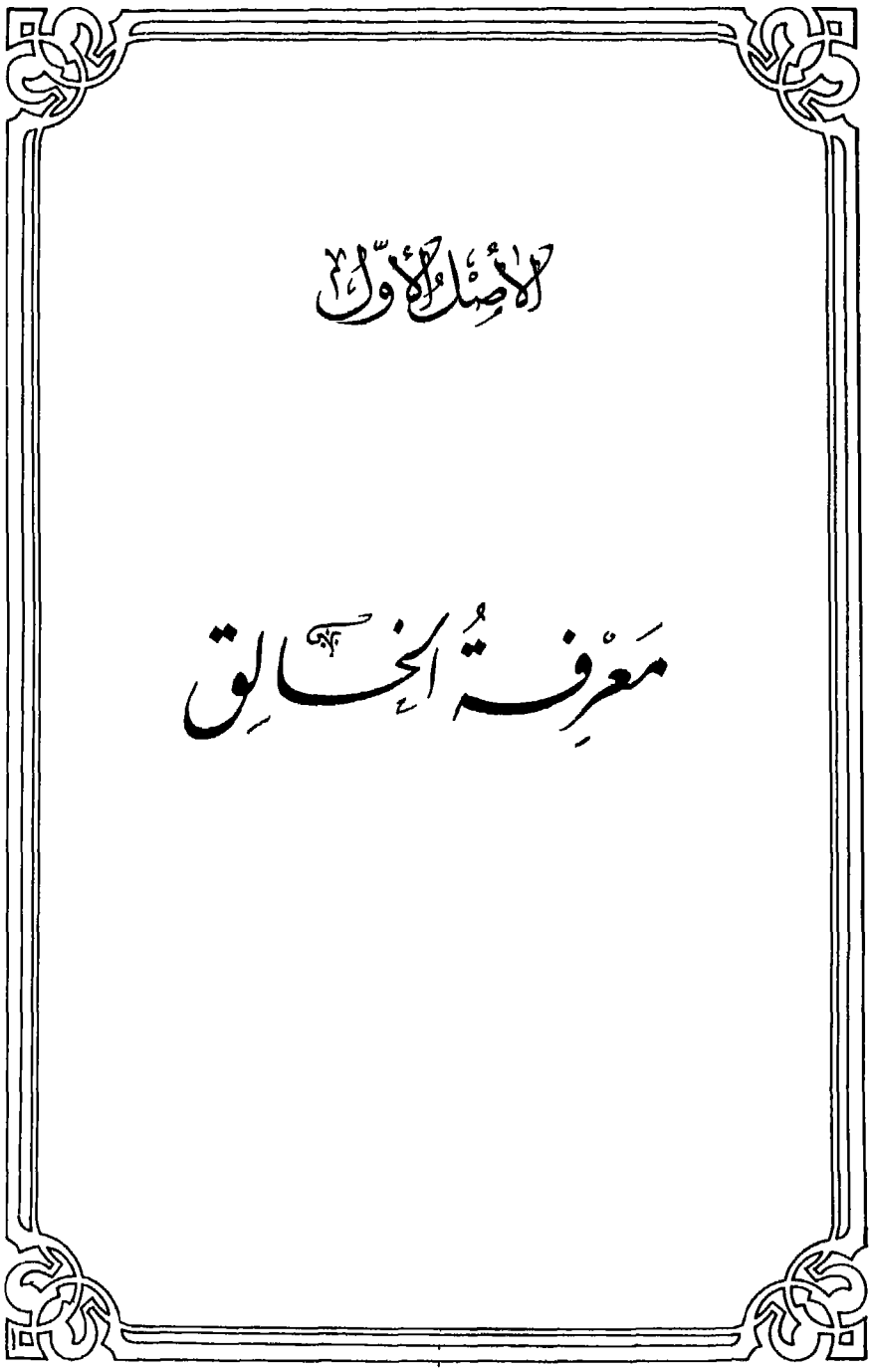

الأصل الأول

معرفة الخالق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

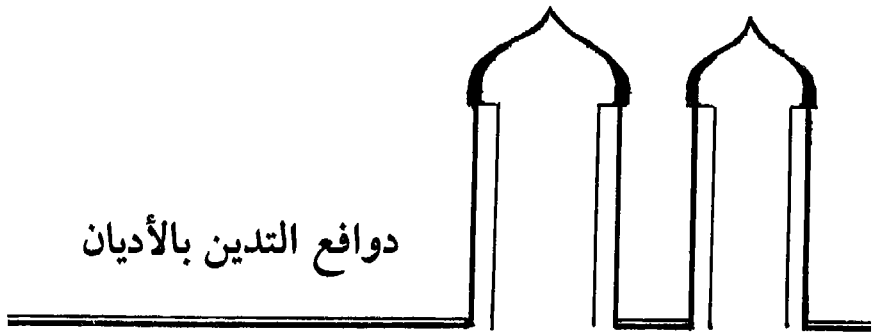

دوافع التدين بالأديان

لمباحث الاديان أهمية خاصة بين سلسلة البحوث الأصولية والفكرية في حياة الانسان ، ولا زالت هذه المباحث مطروحة على الساحة ، كمسألة أساسية ترتبط بسعادة الإنسانية ومصيرها ، وقد كانت لهذه البحوث آثار علمية وثقافية واسعة ورؤية عميقة .

لقد كان للعلماء والمحققين مطالعات وسيعة في البحث عن أصول ودوافع التدين ، قام بهذا التحقيق كل واحد من زاوية فنه الخاص ، وكان يخرج بنتائج وأحكام تتناسب ونظرته الخاصة .

والواقع أن عقائد البشر قد تكاملت على مر الزمان تماماً كالعلوم والصناعات[1] ، وأنها كانت منذ أقدم العصور قبل التاريخ كظاهرة دائمة مما يتعلق بالمجتمعات البشرية ، ولا تجد في عالمك القديم ولا الحديث مجتمعاً لا عقيدة فيه .

إن الفكر الديني قد تحول وتغير وانتقل من دور إلى دور آخر ضمن توسع الأصول الفكرية والعلمية تماما كاللغات ووسائل الحياة ، ولم تبق أطره

---

(١) ـ : لايقصد المؤلف أن العقائد تكاملت من ناحية البشر ، وإنما يقصد أنها تكاملت بفضل وحي السماء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الكيفية الفكرية الأولى وصورتها ثابتة جامدة .

إن البحث والتنقيب عن كيفية تطورات حياة الإنسان وتكامل علومه ومعارفه ، والمطالعة في أعمق آفاق التاريخ ، ترينا أن البشر كان متقيداً بالعقيدة، قبل أن يتعرف على الاستدلالات العقلية، وأنه في بداية تفكره كان متجها إلى خالقه والعلة الفاعلية للعالم ، إلا أنه للعثور على تلك العلة أخذ ينظر إلى ما هو فيه من حواليه ، وبالتالي سقط إلى هوة عبادة الأصنام .

وعلى هذا فإن الدور للعلوم والصناعات البشرية لم يكن أكمل من الأدوار الأولى للأديان والعقائد الإنسانية ، بل يمكن القول بأن بحث الإنسان في سبيل الإيمان والعقيدة ، كان أشد وأطول من مساعيه في سبيل العلوم والصناعات، فإن معرفة الحقيقة الأسمى،حقيقة عالم الوجود أشق وطريقه أصعب من حقائق جميع الأشياء التي تسعى العلوم والصناعات سعياً متواصلاً للوصول إليها .

إن معرفة أكبر الحقائق بصورة كاملة ، لأمة في عصر واحد من غير الممكن ، بل إن أفكار العامة تستعد على مر الأدوار في ظل توسعة وتقدم المعلومات لمعرفة الحقيقة الكبرى .

إن الشمس المشرقة التي هي من أظهر الأشياء كانت ماهيتها مجهولة لمدة قرون ، وكانوا يفسرون حركاتها وآثارها بتفاسير مختلفة عن الحقيقة ، مع أنه لم يكن بإمكان أحد أن ينكر أصل وجودها وشعاعها المشرق ، مع ذلك كانت أفكار العامة بالنسبة إلى معرفة حقيقتها في ظلمة عميقة .

إن درك الحقائق الكبرى ، لا يمكن إلا من طريق التحقيق المنطقي والاستدلال و المطالعة الشاملة ، ولهذا فإن الخرافات والأساطير الدينية في الأمم السالفة ، والتي كانت تصب كل يوم في قالب وأسلوب خاص ، بسبب ضعف الأفكار ومحدودية إطار العلوم والمعارف البشرية ، إن هذه الخرافات ليست دليلاً على أن الدين وتعاليمه ومحتوياته عارية عن الحقيقة ، بل إنها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تـرينا أصـالـة وذاتيـة العـروق الـدينيـة في أعمـاق قلوب البشـريـة ، وكمـا يقول (رونان) : « إن الدين أسمى تجل لطبيعة الإنسـان »[1] ، ولا يمكن أن نتوقع من العلم حينما يرجع القهقرى إلى أدوار ما قبل التأريخ أن يكشف من آثار الأديان الأولى (إن صح التعبير بالأديان) غير الأساطير والخرافات في بقايا آثار القدماء وفي أعماق طبقات الأرض ، فإن إنسـان ذلك العصـر وإن كان يرى أن كثيراً من الأنظمة الجميلة والمحيرة في عالم الطبيعة تستمر وتطّرد في دورات دقيقة ، ومحسوبة ، ومن جانب آخـر فلم يكن قد اتفق لـه يومـاً من الأيام أن توجد إحدى وسائل حياته حسب الصدفة ، إلا أن أجهـزة فكره لم تكن قد تعالت إلى درجة أن تدرك بذلك وحدة نظام العالم والارتباط الكامل بين آثار الطبيعة وظواهرها المختلفة ، ويدرك أن جميع أنظمة الحياة إنما هي تحت قـدرة وإرادة مبـدأ واحـد عليم حكيم لا يشبـه البشـر ، ولا سـائـر الموجودات المعهودة ، وبما أن تواجد أنواع الموجودات لم يكن مما يتحمله تحليله الفكري على أساس ملاحظة منطقية ، لذلك كان يظن أن لكل معلول علة مستقلة ، فكان يستنتج من تعدد أنواع الموجودات تعدد خالقها أيضاً ! .

وبـالتالي كـان ذلك الانـدفاع الفـطري والـروحي الإنسـاني السـامي والأصيل فيه يقع في مجرى منحرف ، فكان بدل أن يتجه إلى الرب الصادق يتجه إلى معبودات كاذبة كان يعبدها ويكرمها ويخضع لها ويصفها بـأوصاف من باب القياس بالنفس أو ما حوله من الموجودات .

حينما تكون حـركات الإنسـان وسلوكه متصفـة بخاصتين : إحداهما الثبـات والأصالـة ، وأخراهمـا العموميـة والشمول في جميـع أفـراد النـوع الإنساني ، يكون من الطبيعي والمنطقي أن نعتبر لها أصولاً وعروقاً في أعماق الروح الإنساني .

لا يمكن أن نحسب وجود هذه الظاهرة ـ ظـاهرة العبـادة والعقيدة في

---

(١) مختصر تاريخ الأديان الكبرى : (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسان ـ بصورة مستمرة دائمة خالدة وعامة شاملة في جميع مراحل التاريخ وحتى أدوار ما قبل التاريخ ، من العادات والتقاليد ، والمراسيم فحسب ، بل إنها ظاهرة من ظواهر عطش خاص فطري ، وإحساس ضروري بالتفتيش عن الحقيقة الكبرى ، إذن فجميع العقائد الدينية بمختلف أشكالها وتجلياتها إنما تنبع من عين فياضة متدفقة هي الفطرة التي ليست من الصدف ، ولا من التلقين والإلزام .

إن الاستعداد لتقبل العقيدة موجود في الإنسان ، وإنما تتشكل العقيدة فيه مبنية على أساس هذا الاستعداد الذاتي ، وإن نفس هذه الجاذبية والاندفاع الذاتي الذي يدفع الإنسان إلى التحقيق الفكري ، لدرك حقيقة الوجود دليل على ضرورة معرفة الدين ، ولكن لا يلزم أن تكون صحة هذا الاستعداد الذاتي والحالة الروحية في الإنسان ملازمة لصحة العقيدة المتشكلة عنده ، كما أن الإنسان يحتاج إلى الطعام من دون أن تكون هذه الحاجة مبتنية أو ملازمة لصحة أو عذوبة كل مادة من الطعام ، إن الروح الإنسانية كذلك تفتش عن غذائها الروحي الخاص أي الايمان والعقيدة ، وتصر على معرفة الرب وعبادته ، وإن كان هذا الدافع الذاتي الأصيل عاجزاً عن تمييز العقائد الصحيحة عن غيرها .

يتفق المحققون على امتزاج العقائد الدينية بحياة البشر ، وإن كانوا يختلفون في أصول المذاهب والعوامل الأساسية في تأسيسها ونموها ، وأكثر أحكامهم في هذا المجال ـ مع الأسف ـ مبني على أساس مطالعات في الأديان الخرافية ، والأفكار غير الرشيدة ، ومن الطبيعي أن تكون هذه الأحكام في التحليل النهائي عن الأديان ناقصة وغير منطقية .

صحيح أن كثيراً من الأديان كان لعوامل المحيط والبيئة الاجتماعية وغيرها أثر ومدخلية في تكوينها وتطورها ، لعدم ارتباطها بمبدأ الوحي ، إلا أنه ليس من المنطقي أن نحسب مباني وأصول جميع الأديان والاتجاهات المذهبية منطلقة من مقتضيات اقتصادية أو مادية أخرى أو من الخوف من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العوامل الطبيعية أو الجهل بها ، بصورة عامة .

لا شك أن أحد العوامل لتواجد الأفكار المضادة للدين ومنكري الخالق هي تلك الانحرافات والنقائص وسوء التعليم في أتباع بعض الأديان والمذاهب ، ولهذا يجب في مطالعة دوافع الاعتقادات أن تجعل الخصائص المذهبية لكل مذهب خاص مورداً للتحقيق والملاحظة .

يمكننا أن نرى الدين في كثير من الحوادث التاريخية حاكماً على العلاقات القائمة ، فإن لم يكن للدين أصالة لزم أن ينحصر دائماً في حدوده المادية فقط ، فما هو العامل الذي استطاع أن يجعل الشخصيات الدينية هكذا تقاوم في سبيل أهدافها الدينية ؟ هل أن توقع المنافع المادية والأهداف الخاصة هي التي جعلت مرارة المصائب والمشكلات عندهم حلاوة ؟ ! . بينما كانوا يضحّون بجميع إمكاناتهم المادية والترفيهية وآمالهم الشخصية فداء لأهدافهم وعواطفهم الدينية بكل سخاء ، بل كانوا يجودون بأنفسهم بكل حب وإخلاص ! .

وعلى هذا فإن من غير الممكن تفسير اندفاع الإنسان إلى الدين تفسيراً مادياً ، بل إن هذه الحوادث تبين لنا أصالة الإحساس الديني في ضمير الإنسان .

يقول (لو كنت دونوئي) : « إن الروح الدينية والعقائدية والعبادية والتواضعية في عبادة كاملة ، وإرادة تزكية النفس لتقرّبها إلى الكمال المطلق غير المتصوّر ، كانت موجودة في الإنسان في طول التأريخ ، إن هذه الإرادة لها مبدأ إلهي ، فإنها عالمية وموجودة في الجميع على السواء »[1] .

وكتب (ويل دورانت) يقول : « إن الإيمان أمر طبيعي وهو وليد الحاجات الغريزية والإحساسات المستقيمة بصورة مباشرة ، أقوى من الجوع وحفظ النفس والأمان والطاعة والانقياد » .[2]

---

(١) ارتباط الإنسان بالكون : ص ٦٩ . (بالفارسية) .

(٢) لذات الفلسفة : ص ٤٧٦ . (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن العقائد غير المنطقية ليست منحصرة في إطار الأديان ، فإن كثيراً من العلوم قبل أن تتصفى كانت مزيجة بالخرافات ، فإن الإنسان لم يظفر بعلم الطب الحقيقي والمفيد ـ مثلاً ـ إلاّ عن طريق السحر والشعوذة ، ولم يصل إلى الكيمياء الواقعية إلاّ من طريق الكيمياء غير الواقعية ، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أن البشر إذا أخطأ في بحثه عن شيء كان لزاماً عليه أن يبقى دائماً على خطئه ولا طريق له للوصول إلى الحقيقة .

إن منكري الخالق يستندون إلى هذه المسألة ويستنتجون منها أن الله وليد فكر الإنسان ! ، (برتراند راسل) العالم الإنكليزي ـ مثلاً ـ يرى أن منشأ ظاهرة الدين هو الخوف من العوامل الطبيعية ويقول :

« أنا أرى أن المذهب قبل كل شيء مبتن على أساس الخوف ، الخوف من المجهول . أضف إلى ذلك ما ذكرته سابقاً أنه بسبب العقيدة الدينية ينشأ إحساس يتصوّر معه صاحبه ، أن له ظهراً ومدداً في المشاجرات والمشكلات ، الخوف من الموت ومن الهزائم ومن الأسرار المجهولة والمسائل الغامضة غير المكشوف عنها » .[1]

إن هذا الكلام ادعاء لم يقم لإثباته أي دليل كما يقول (صموئيل كينك) : « إن منشأ الدين سر من الأسرار ، وللعلماء بهذا الخصوص نظريات لا تحصى كثرة ، بعضها أقرب إلى المنطق من البعض الآخر ، إلا أن أحسن هذه النظريات من الناحية العلمية لا يخلو من إشكالات ولا يعدو أن يكون تصوّراً منطقياً ، ولهذا فإن علماء الاجتماع لهم اختلاف شديد في منشأ الأديان »[2] .

ومع ذلك نقول للإجابة على كلام (راسل) :

لو فرضنا أن الدافع الأولي والأصلي للبشر في العقيدة بالخالق هو

---

(١) لماذا لست مسيحياً : برتراند راسل ص ٣٧ (بالفارسية) .

(٢) موسوعة معارف كينغ : ص ٩٩ (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخـوف ، فهل يصبـح هـذا دليـلاً على أن الله وهم أو خيـال ، ولا واقعيـة له ؟ ! .

إذا كان الخوف دافعـاً للإنسـان لكي يلجأ إلى مـأمن منه ، ومن هـذا الطريق يقع على واقعية معينة فهـل في هذا إشكـال ؟ ! ، إذا كان الخـوف دافعا للظفر بشيء فهل يمكن أن يقال : بدليل أن الـدافع للبحث عن هـذا الشيء كان هو الخوف فإن هذا الشيء لا واقع له وإنما هو موهوم ؟ ! .

هل من المنطق أن نقـول : إن علم الطب ليس علمـاً واقعياً ، إذ إن الإنسان إنما تتبعه وظفر به بسبب خوفه من المرض والموت ؟ ! بل الحقيقة أن علم الطب علم واقعي سواء كان الدافع الأولي للبشر للحصول عليه هـو الخوف من المرض والموت أو أي عامل آخر .

إن الإيمان بالرب العليم القدير ملجأ ومستند حقيقي قوي ، ولكن هذه المسألة لا علاقة لها بأن يكون الدافع الأصلي في الإنسان للإيمان بـالله هو الخـوف من الحوادث والبحث عن ملجـأ معين ، ويجب أن تلاحظ هـاتـان المسألتان بعيدة إحداهما عن الأخرى .

لا شك في أن البشر في مراحله البدائية من حياتـه كان يبتلى بـوحشة مـوجعة حين مـواجهة الحـوادث الـطبيعيـة المـوحشـة كـالـزلازل والسيـول والأمراض ، وأن كابوس الخوف كان ينشر جناحه على جميع شؤون حياتـه وأفكاره ، وفي هذه المرحلة من مجاهـدته الشـاقة مـع الخوف والعجـز كان يبحث عن مستند يستطيع أن يلجأ إليه حين الأحداث المهولة ، فيكون سبباً لطمأنينة روحه ، واستطاع بسعيه المتواصل ، أن يتغلب تدريجياً على كابوس الذلة والخوف وأن يحصل على انتصار ساحق في هذا المجال .

إن البحث في مراحل حياة الإنسان القديم ، وتواجد شواهد لاستيلاء الخـوف على أفكـاره ليس دليـلاً على أن الخـوف والجهـل كـانـا العـاملين الـوحيدين الأصيلين لاعتقـاد الناس بـالدين ، إن هكـذا نظرة إنمـا تنشأ من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النظرة الضيقة إلى العوامل والدوافع ، فإننا إنما نستطيع أن نأخذ نتائج عامة من تحقيقاتنا ومطالعاتنا التاريخية فيما إذا بحثنا وحققنا في مجموع مراحل تاريخ البشر وأدواره المختلفة ، دون ما إذا طالعنا زاوية من التأريخ الإنساني الواسع ، ذي العروج والهبوط .

لا ينبغي لنا أن نجعل سلطة الخوف الوسيعة على جميع شؤون الإنسان في الأدوار المحدودة المعينة أساساً لأحكام كلية لجميع أدوار البشر ، أليس حكماً عاجلاً أن نحسب الأفكار والإحساس الديني للناس واتجاههم لعبادة الله في جميع الأزمنة حتى العصر الحاضر ناشئاً من الخوف من قهر الطبيعة والحروب والامراض ؟ ! .

ليس كل معتقد بالدين أضعف الناس ، إن الذين رفعوا راية الدين في مسير التأريخ كانوا من أثبت وأقوى الناس ، وليست النسبة بين إيمان الشخص وشدة ضعفه نسبة متعاكسة أي كلما ازداد ضعفه ازداد إيمانه ! وأن يكون زعيم الناس في الدين أقدمهم وأسبقهم إلى الهوان والضعف والعجز ! .

هل أن عقيدة آلاف العلماء والمفكرين بالدين نتيجة خوفهم من الزلازل والسيول والأمراض ؟ أم أن دافع اتجاه هؤلاء المحققين إلى الدين - الذي إنما اتبعوه من طريق التحقيق العلمي والمنطق والبرهان العقلي - يمكن أن يفسر بالجهل وعدم اطلاعهم على علل الحوادث الطبيعية ، ثم نغفل أو نتغافل عن دور عقولهم وأفكارهم في موضوع عقائدهم ؟ ماذا يحكم العقلاء ؟ ؟ .

إن الانسان لا يعتقد بالدين ليظفر بالأمن والطمأنينة بل إنما يتمتع بثمرة الإيمان بالله وهي السكون والأمان بعد الاعتقاد والإيمان. إن العلماء الإلهيين يعتقدون أن العالم بوصفه مجموعة من العلل والمعلولات والأسباب والمسببات المحسوبة دقيقاً ، والكائنات ذات النظام الدقيق خير شاهد على وجود مبدأ لهذه القدرات والعلوم ، إن النقوش المختلفة والمتداخلة غير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المفهومة في لوحة ما لا يمكن أن تكون دليلاً على النقاش والرسام الفنان والماهر ، بل إنما يمكننا أن نجعل النقوش والرسوم المحسوبة بدقة والتي تحتوي على معاني وملامح مفهومة سنداً ودليلاً على وجود فنان رسام ماهر .

* * *

ومن ناحية أخرى : نرى الذين يرون أن الاعتقاد بما وراء عالم الطبيعة مسبب عن أوضاع اقتصادية ، ويسعون كثيراً للربط بين الدين والاقتصاد ، نراهم يقولون : إن الدين كان ولا يزال في خدمة الاستعمار والاستثمار ، وإن الطبقة الحاكمة المستثمرة هي التي اخترعت الدين كي تهزم مقاومة الشعوب المستثمرة تحت ستار الدين ، ولكي تفيد من هذه الوسيلة لاستخدام وتخدير الكادحين والمحرومين ، وتشوقهم بالعقيدة إلى تقبّل الحرمان ، ولا شك أن الدين ـ كأي شيء آخر في هذا العالم ـ قد أفيد منه للإضرار بالآخرين ، وحينما ينحرف الدين عن مسيره الصحيح يصبح وسيلة بيد المرابحين المتاجرين كي يقيدوا به الأمم والشعوب ، إلا أن هذه المنفعية والمصلحية الطبقية الظالمة ، لا ينبغي أن تصبح حجة بيد الانتهازيين كي يهجموا على كل ما هو باسم الدين والمذهب ، وبكلمة نقول : يجب أن نفصل بين الأديان المحرّفة والاستعمارية التخديرية ـ إن كانت ـ والأديان الأصيلة والبناءة .

يمكن أن يكون الإيمان الديني في كثير من المجتمعات الإنسانية مقارناً لأوضاع اقتصادية ، غير مزدهرة وتأخر وجمود، إلّا أن هذا التقارن لا يمكن أن يكون ملاكاً ومقياساً لنسبة بينهما ، ولا يمكننا أن نرى هذا التقارن بعنوان رابطة الترتب واستنتاج أحدهما من الآخر ، فإننا أحياناً نرى مجتمعاً يعيش رفاه الحياة والقوة المادية والاقتصادية يعتقد بالدين اعتقاداً عميقاً ، ومجتمعاً آخر بنفس الأوضاع من حيث الرفاهية ، والحالة الاقتصادية نراه يعرض عن الدين ، وكذلك نرى أن شمس الدين تغيب أحياناً في محيط الفقر والتأخر ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي مكـان آخـر بنفس المـوقعيـة الاقتصـاديـة نـرى الـدين في أوج الـرقي والتعـالي ، إن عدم الانسجـام البيّن هذا بين الأوضـاع الاقتصاديـة وتوسـع اعتناق الدين أو انكماشه دليل بيّن على أن التقارن الزمني لا يكفي في كشف علاقة العلة والمعلول ، بل لا بد من خصوصية أخـرى هي أن يكون وجـود وعدم أحدهما مرتبطاً بوجود وعدم الأخر .

نستطيع أن نرى عدم الانسجام هذا في مجتمعين يعيشان تحت سلطة الاستبداد والضغـط وخنق الأصوات من قبل الطبقة المستثمرة (بالكسر) ، فنرى أن الدين قد خرج من صميم الحياة في محيط بينما هو في صميم حياة المجتمع في محيط آخر مع أوضاع متساوية .

إن اعتنـاق الدين ليس مسبباً من الحـرمـان المـادي ، بـل إن البعـد والإعراض عن الدين مسبب عن الاتجاه إلى المادية والكماليـات ، فالـذين ينغمسون في بؤرة الشهوات وعبادة الدنيا يعرضون عن الدين .

إن الواقع يدلنا على أن الإنسان يتجه إلى الدين في مختلف الأوضاع والأحوال ، ولهذا ينبغي أن نتتبـع في حالات الاتجـاه الديني تلك الـدوافع الأصيلة الـروحية والـذاتية ، لا الأوضـاع والأحـوال الاقتصـاديـة . إننـا في ملاحظتنا لأهداف الأديان الإلهية نصل إلى نتيجة :

إن تأمين الرفاه الاجتماعي وأثر الدين الإيجابي في العدالة الاقتصادية هو أحد أسباب بعثة الأنبياء الربـانيين واعتقاد النـاس بالـدين ، وإن العدالـة الاقتصادية هي إحدى الفوائد التي يحظى بها الإنسان من طريق الدين .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاتّجاه الإلهي في أعماق الوجود الإنساني

للإنسان خارج حدود جسمه أبعاد وسيعة من المساعي الحياتية التي لا تتحدد بحدود البدن أبداً ، ولمعرفة زوايا أبعاد الإنسان خارج حدود جسمه والجوانب الفيزيكية يجب سلوك طريق التحقيق في أعماقه الروحية حتى نصل ما وراء نشاطاته الفيزيكية إلى الآفاق الوسيعة للظواهر الطبيعية والعواطف والغرائز الإنسانية ، ومع مقارنة النشاطات والفعاليات الروحية والنفسية ومطابقتها لعالم الخارج يتضح لنا كثير من الأسرار والمسائل المعقدة

إن للإنسان سلسلة من الإدراكات الخاصة لها عروق ذاتية تنشأ من طبيعة الإنسان ، ولا يؤثر في تواجدها في الإنسان أي عامل خارجي .

قبل أن يرد الإنسان الطبيعي في المباحث العلمية بإمكانه أن يدرك حقائق بمعلوماته تلك الفطرية ، وبعد دخوله في المباحث العلمية و الفلسفية واكتناز مخه من البراهين والاستدلالات المختلفة ، يمكن أن يصل به الأمر إلى نسيان أو تناسي تلك المعلومات الفطرية أو الشك والترديد فيها ، ولهذا نرى أن الإنسان حينما يعزل فطرته عن معرفة العقيدة تبدأ الاختلافات .

إن الاعتقاد بالدين والإيمان بالله ينبع في مراحله الأولى من الدوافع الغريزية والإدراكات الفطرية ، ثم يتكامل بمساعدة العقل والفكر ، إن جذور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإحساس الفطري في النفس الإنسانية عميقة وفي نفس الوقت جلية واضحة إلى درجة أن لو غسل الإنسان فكره وروحه عن كل تصور ديني ، وفكر مضاد للدين وتوجه إلى نفسه والعالم ، أدرك جيداً أن قافلة الكائنات تتحرك دائماً إلى هدف معين ولأجل مسمى ، وقد بدأت الحياة من دون إرادتها وتجري إلى نقطة معينة ـ وإن كانت مجهولة لها ـ بدون إرادتها أيضاً ، ويلاحظ هذا الواقع في جميع الموجودات في الطبيعة بأسلوب ونظم دقيقين .

إن الإنسان الطبيعي حينما يرى الأوضاع والأحوال حوله يدرك جيداً وجود قدرة عظمى محيطة به وعلى جميع العالم ، إنه يرى العلم والقدرة والإرادة في وجود ذاته التي هي جزء صغير جداً من هذا العالم الكبير ، ثم يفكر : كيف يمكن أن يفترض عدم وجود الإرادة والقدرة والعلم في مجموع العالم ما عدا الإنسان ؟ و بكلمة : إن الذي يلزم الإنسان بالإيمان بوجود حكيم مدبر لهذا العالم يجري نظامه الموجود بأمره وتقديره هو نفس هذا النظام والحركة الدائبة المحسوبة والمقدّرة بدقة خاصة، إذ لا يمكن تفسير هذا النظام الموجود إلا بقبول وجود هذا الحكيم المدبر ، إن الإنسان حينما يقدر موقعه في العالم يدرك أن هناك قوة خاصة تخلقه وتحركه وتذهب به إذا شاءت ، من دون أن تستمد منه أو تستجيز .

إن هذا الحكم فطري ، إذ لم ير البشر في أي مكان وأي زمان مصنوعاً بدون صانع ولا عملاً بدون عامل ، إن البحث عن علاقة العليّة ، ينبع من إحساس ذاتي ، وحيث لا يمكن فصل إدراك العليّة من أحد فإن الإحساس الديني والبحث عن الخالق ، أيضاً لا يمكن فصله عن الإنسان ، حتى الطفل الذي لم ير العالم حينما يسمع صوتاً أو يشاهد حركة يتوجّه إلى منبع الصوت ومنشأ الحركة بصورة طبيعية .

إن قبول نظام العليّة هو أساس حياتنا العلمية وأصولنا العلمية، بل هي من النواميس العامة التي لا تتحمل الاستثناء حتى في مورد واحد ، فالعلوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمـا فيها علم الجيـولوجيـا (طبقات الأرض) والفيـزياء العـامـة و الكيميـاء الطبيعية وعلم الاجتماع والاقتصاد و التحقيق في ظواهر الوجود . . . كلها محاولات لتعيين العلل والعوامل وتشخيص كيفية العلاقات فيما بين الأشياء، وهكذا يتبين أن العلوم والمعارف ليست إلا سعياً لكشف العوامل و العلل ، وأن كل تقدم في ميادين العلوم والصناعات ليس إلا نتائج لتتبع العلماء حول علل الاشياء .

لو كان بـإمكاننـا أن نشاهـد في زاوية من هذا العالم، في مـوجود من موجودات هذا الوجود العام علامة على الوجود الذاتي كان لنـا الحق في أن نعمم هذا بالنسبة إلى سائر الموجودات ، وليس من الضروري أن يبدو قانون العلية لنا بصورة الظواهر العادية ، إذ أن تنوع العلل من الكثرة بمكان يمكن أن يعجز الملاحظ عن تعيين جميعها حتى في حادث معين ، ولكن لا يمكن أن نجـد في أي شأن من الشؤون البشـريـة الجـزئيـة والكليـة في المـاضي والمستقبل في أمر فردي أو اجتماعي نقطة واحدة من الصدفة قط .

حينمـا تثبت العلوم التجريبية أن لا سبيل إلى الاستقـلال في الوجـود لعناصر الطبيعة ، وحينما تبلغ تجريباتنا وإحساساتنـا واستنباطاتنا إلى نتيجـة واحدة هي :

إنه لا يمكن أن يقع أي أمر في الطبيعة بدون علة خاصة ، وإن جميع الحوادث تتبع نظاماً وقوانين معينة ، غريب أن نرى أناساً يطرحون الأحكـام العلمية والفطرية والعقليـة وراء ظهورهم وينكرون وجود الخالق إطلاقاً ! .

ويمكننا أن نعبر عن الفطرة بالغريزة الإنسانية المتكاملة والمتطورة التي تستطيع أن تعبر جدران المحسوسات إلى الأسرار المجهولـة ، إن كل حكم لأي مسألة تنشأ من ضمير البشر لا من أثر الأنظمة العقائدية والتـربوية فهي من الفطرة ، ولا فرق بينها وسائر الغرائز الإنسانية كحب الذات وحـب الوجود من حيث الأصالة و الشمول .

ولكن التربية وعوامل البيئة والمحيـط فهي من الأمور التي تحجب عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تجلّي الفطرة أو تقوّيها ، يقول (والتر اوسكار لندبرك) العالم الفيزيولوجي المعروف :

« لعدم توجه بعض العلماء في المطالعات العلمية إلى درك وجود الخالق علل متعددة : منها : الأوضاع والأحوال السياسية المستبدة أو الوضعية الاجتماعية أو الهيئة الحكومية والإدارية، تكون غالباً مما تسبب أو تؤثر في إنكار وجود الخالق »[1] ، إن ما ينشأ من مبدأ غريزي ، يكون من حيث الجمال كالنظام الطبيعي بالذات ، والذين بقوا أحراراً في المسير الأصيل لخلقتهم ولم يتقيدوا بقيود العادات و التقاليد ولم تصطبغ فطرتهم بصبغة اللغات و المصطلحات ، هؤلاء يسمعون نداء ضميرهم أحسن وأحسن من غيرهم، ويدركون الحسن والسيّىء في أعمالهم، والحق والباطل من معتقداتهم ، ولهذا لا تجد الإلحاد عن التدين كتحريفه عن الفطرة عند هؤلاء إلا قليلاً ، وإذا قيل لهم : إن هذا العالم مخلوق صدفة وبلا نظام ، فلا يؤثر فيهم هذا الكلام حتى ولو كان مسبوكاً في قوالب المصطلحات الفلسفية، إذ إنهم يردونه بفطرتهم .

وقد تجد أناساً مقيدين بين المنسوجات العلمية المصطلحة يترددون من أثر هكذا كلمات تصاحبها مصطلحات مصبوغة بزينة وجمال ، إن العلوم المصطلحة المحدودة الباعثة على الغرور كالقوارير الملونة تجعل أمام منافذ عقول وفطرة هؤلاء ، فيصبح أصحاب هذه العلوم يرون العالم بلون علومهم ومعارفهم وفنونهم ، ويتصورون أن ما يرونه من نافذة حواسهم وعقولهم المحدودة هو كل الواقعيات ، ولا نقصد بهذا الكلام أن يقف الإنسان عن التكامل العقلي كيما لا يبتلى بالتحريفات ، بل المقصود أن لا يبقى الإنسان مغروراً بفنونه و محكوماً عليه من ناحية ثقافته المحدودة .

إن أكثر الناس بدل أن يجعلوا علومهم ومعارفهم سلالم تحت أقدام

---

(١) إثبات وجود الخالق ص ٦٠ . (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عقولهم ليصلوا بأنفسهم إلى مستوى أسمى ، يتوقفون حيث كانوا ، ويتقيدون بحدود مفاهيمهم ومصطلحاتهم محصورين محبوسين فيها .

إن الفطرة تسعف الإنسان عند المخاطر أيضاً ، حينما يواجه الشخص ضغطاً قوياً ومشكلات شديدة ، وتعرض عنه العوامل المادية من كل ناحية ، وتقصر يداه عن جميع إمكانات الحياة ، ويصبح غريقاً كريشة أو عود من التبن في بحر الحوادث ويقرب من الموت حتى القدم الأخير ، حينذاك يهديه ذلك العامل الضمير إلى ملجأ غير مادي ويتمسك بمن تفوق قدرته جميع القوى ، ويدرك أن ذلك الوجود القدير الرحيم الرحمان هو القادر على انتشال يده بقدرته الفائقة ، فهو بهذا الإدراك يستعين بساحته المقدسة للنجاة من الخطر بجميع وجوده ، ويحس في زاوية روحه قوته وقدرته على إنقاذه ونجاته ، حتى الأقوياء الطغاة العتاة المردة الماديون الذين يطغون ويستغنون عند السلطة و الاقتدار عن القدرة الإلهية الأزلية ، حينما يواجهون ضيق الهزيمة والفناء ينسون فجأة كل ما تعلموه من إنكار الخالق في المدارس أو البيئات المادية ، ويقبلون بكل قلوبهم وأرواحهم على مبدأ الوجود ومنبع القدرات والطاقات .

وقد احتفظ التأريخ في ذاكرته بنماذج كثيرة من هكذا أناس زال عنهم غبار التلوثات المادية في الأحوال الشاقة التي تفوق الطاقة ، فتوجهوا إلى الخالق الوحيد من عمق قلوبهم .

(ديدرو) أحد كبار الفلاسفة الماديين الفرنسيين ، له في آخر كتاب كتبه في أصالة المادة و المادية كلمات في المناجاة والاعتذار ، كتبها كرد فعل لوجدانه وفطرته يقول :

« يا إلهي ! بدأت بياني من الطبيعة التي يعتقد الربانيون الإلهيون أنها من صنعك ، وأختم بياني هذا بك ، يامن يسميك أهل الأرض : الله ، إلهي أفترض أنك موجود وواقف على أعمالي وعالم بضميري ، لو أعلم أني فيما مضى قد عملت على خلاف حكمك وعقلي ، فأنا نادم من ذلك العمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومتألم، ولكني غير متألم من المستقبل إذ باعترافي تغفر لي ، لا أطلب شيئاً منك في حياتي هذه إذ ما يجب أن يكون يكون إما بحكمك أو بقانون الطبيعة ، أما لو كان هناك عالم آخر فإني أرجو منك ثواباً، وإن كنت عملت ما عملته لنفسي » .[1]

* * *

إضافة إلى المنابع الباطنية المودعة في روح الإنسان والتي تساعده على فهم الحقائق ، كي ينتخب طريقه بكل حرية طبقاً للأصول الفطرية بعيداً عن المصوغات الفكرية والدعايات المضللة ، يجب أن يكون هناك إرشاد من خارج وجوده ، لهداية فطرته وعقله وتقويتهما ، ولكي يصلح الطبائع الطاغية والمتطرفة والمفرطة ، ويمنع العقل والفطرة عن الانحراف ويحررها من التوقف أمام المعبودات المصطنعة .

بعث الأنبياء ليوجهوا الإدراكات الفطرية اللطيفة ، ويطهروها من قتام العقائد والعادات المكتسبة من المحيط والبيئة ، ويقودوا اتّجاهه الإلهي في مسيره الواقعي ، ويربّوا اتّجاهاته السامية المتعالية .

وليست هذه الهداية بمعنى إطفاء شعلة الإرادة الإنسانية الخلّاقة ، حتى تسلبه حريته وقدرته على التفكير والانتخاب ، بل هي نوع من الإمداد للاتجاهات والدوافع الإنسانية الإيجابية ، كي يقتدروا على الإفادة من فطرتهم وطبيعتهم الفكرية ، ويتفتحوا على الحق والواقع .

إن أولى الناس باتباع دعوة الأنبياء أصحاب الضمائر الطاهرة ، وكان في الصف المخالف لهم أناس يستندون إلى ثروتهم أو قدرتهم البالية ، أو المغترون بعلمهم الضئيل وعقلهم الناقص والمختلط بأوهامهم حيث كان

---

(١) عقائد وآراء بشرية ص ٣٠٨ (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغرور والنخوة الجاهلية تمنع عن تفتح استعداداتهم وتنور طبائعهم .

يقول أحد العلماء : « إن قانون العرض والطلب يحكم حتى في المعنويات ، إذ لو لم تكن فطرة الناس تطلب العقيدة لكان عرض الأنبياء لدعوتهم الدينية يذهب هدراً ، والذي نشاهده أن عرض الأنبياء لم يبق بلا سوق رائج بل وجدت نظراتهم المثمرة والأصيلة أتباعاً وحماة كثيرين ، وهذا دليل على وجود طلب الدين في باطن ضمير الإنسان .

إن دعوة الأنبياء كانت مبنية على التوحيد لا إثبات الصانع ، إنهم نفوا قابلية عبادة الصنم ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، كي لا يروى العطش الروحي والفطري للبشر ، بمصاديق كاذبة للآلهة كالأوثان والنجوم والشمس ، والقمر ، بل يبحثوا عن الأهداف والقيم المستقيمة في الإله الحق ، ويتقيدوا بالكمال اللامنتهي ، ويسرعوا إلى منبع جميع القيم والفضائل بإيمان متكامل من دون توقف ، ويصلوا في النهاية إلى الهدف النهائي .

إذن فالشرك واللادينية بجميع أنواعها المتقدمة (المادية) وغير المتقدمة (الوثنية) كلها من نتائج الانحراف عن الفطرة .

إن تقدم العلوم في خصوص التجربة الدينية التي لها اليوم مظاهر في كل زاوية من العالم ، أسفر عن كشفيات هامة نستطيع أن نحصل منها على نتائج قيمة لمورد بحثنا هذا .

إن تأريخ الأديان يحلل الإحساس الديني والاتجاهات والعوامل المصيرية بأسلوب حديث يغاير التفسيرات السابقة بصورة عامة ، وذلك بالاستناد إلى أسناد ومدارك معتمدة لدى علماء الاجتماع والتاريخ .

إن علم النفس الذي بدأ بالتحقيق في النفس غير الشاعرة من (فرويد) واستمر بمساعدة (ادلر) و(يونك) قد توصل في أعماق روح الإنسان إلى عالم جديد من القوى الخفية وأنواع المعارف والإدراكات غير العقلية ، وفتح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للعوامل غير العقلية وما وراء الإرادة كالإحساس الديني ميادين للتتبع العلمي المنظم .

ويجري الآن بحث فكري يستلزم اعتقاد عدد أكثر من المفكرين من مختلف المدارس بهذا الأصل : وهو أن الأحساس الديني هو أحد العناصر الأولى الطبيعية والثابتة لروح الإنسان ، وأن الإدراك الفطري هو من نوع إدراك ما وراء العقل .

من حدود عام (١٩٢٠ م) استطاع أحد فلاسفة الألمان باسم (روددلف ات) أن يثبت وجود عناصر فطرية وراء العقل في الإحساس الديني إلى جنب العناصر العقلية الأخلاقية ، وأن جميع أوصاف الله كالقدرة والقداسة والأكبرية إنما هي لتفهيم أن مفهوم القدس لا يمكن أن يرجع إلى شيء من المدركات العقلية ، بل مفهوم مستقل لم ينشأ من مفهوم آخر ، ولا يمكن أن يعد مع أي مفهوم من المفاهيم العقلية وغير العقلية واحداً .

إن من إحدى خصائص هذا العصر كشف بعد رابع في عالم الطبيعة باسم (الزمان) مزيج بالأجسام كسائر الأبعاد،وعلى هذا الأساس يقال : لايوجد جسم في العالم فارغاً عن الزمان الناشيء من الحركة والتحول .

كذلك انتهت تحقيقات العلماء في هذا العصر إلى معرفة بعد رابع في الروح الإنسانية باسم (الإحساس الديني)[1] .

وسائر الإحساسات الثلاثة هي :

١ - حب الاستطلاع والمعرفة ، وهذا الإحساس هو الذي حمل فكر البشر من أول يوم على التحقيق حول المسائل المجهولة ، ومعرفة عالم الوجود ومظاهره المتنوعة ، وفي ظل هذا التحقيق ظهرت الصناعات والعلوم ، إن الشدائد والأتعاب التي يتحملها مؤسسو العلوم والمحققون والكاشفون للكشف عن أسرار الطبيعة إنما تنشأ من هذا الإحساس .

(١) الإحساس الديني (بالفارسية) بترجمة مهندس بياني .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ الإحساس بالإحسان الذي هو مستند الفضائل والصفات الروحية السامية ، فكل إنسان يحس في عمق وجدانه وضميره جاذبية تجذبه إلى العدل وحب النوع والفداء ، إن هذا الإحساس والجاذبية الأصيلة تحدث نوعاً من الاتّجاه إلى السجايا الطاهرة والتبري والنفور والانزجار عن الأرجاس .

٣ ـ الإحساس بالجمال الذي هو سبب لتجلّي وظهور أنواع الفن والذوقيات ، وله أثر عميق في ظهور قسم عظيم من الحوادث الاجتماعية .

٤ ـ الإحساس الديني أو المفهوم المقدس للبعد الرابع ، وهذا الإحساس هو نوعٌ من الجاذبية إلى ما وراء الطبيعة ، وهو يتضمن استقلال سائر المفاهيم الثلاثة وبكشف الإحساس الديني انكسرت محاصرة الأبعاد الروحية في الثلاثة ، وثبت أن لجميع الاتجاهات الدينية جذوراً ذاتية ، ظهرت في أدوار كان أصحابها يعيشون في بطون الغابات وشعب الجبال .

لكسب المعرفة بمبدأ الوجود أساليب متعددة ، إن مفهوم « الله » إجابة صحيحة للحاجات العقلية وغير العقلية (الفطرية) ، فالعقل يتيقن بوجوده من طريق النظام والآيات يقيناً قاطعاً بيناً ، والفطرة ترتبط بالله عن طريق الحب والحاجات الفطرية ، حتى كأنك تقول : إنه يرى الله جهرة ! لا بالبصر بل بالبصيرة ، ولا حاجة في إدراك الله عن طريق القلب والحب إلى أي نوع من الاستدلال والبرهان .

إن العلم اليوم وإن كان يبحث عن التحقيق التجريبي للاستدلال ، إلاّ أن توحيد الله الذي يكون نتيجة مباشرة للبحث والاستدلال ، سواء كان بالدلائل العقلية والفلسفية أو العلوم التجريبية الحسية ، فهو توحيد استدلالي .

هناك علماء مثل (ديكارت) و (سن توما داكن) وصلوا إلى نتائج واضحة من معرفة مبدأ الوجود من نافذة العقل والبرهان والفكر العلمي وهناك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عرفاء مثل (باسكال) الفرنسي أدركوه عن طريق الشهود الباطني والفطرة ، وكان هو يقول : « للقلب دلائل للإيمان بالله لا سبيل للعقل إلى تلك الدلائل »[1] .

وكان (أنشتاين) هكذا يفكر : « إن أجمل وأعمق الأحاسيس التي يمكن أن تعرض للإنسان هو حسه العرفاني ، فهو الذي يبذر بذور جميع العلوم الواقعية في النفوس ، والذي لا يشعر بهذا الإحساس ولا يستطيع أن يكون متحيراً مبهوتاً فهو كالميت »[2] .

و (شوبنهاور) العالم الألماني يرى الاتجاه الديني في الإنسان عميقاً جداً حتى أنه يجعله هو الفصل المنطقي المميز له عن سائر الحيوانات فيقول : « إن الإنسان حيوان يعتقد بالميتافيزيقيا »[3] .

مع ما لحس حب الاستطلاع والإحسان والجمال من الأصالة والاستقلال والأثر في العلوم والأخلاق والفن ، فإن الحس الديني يهيّىء الأرضية لتحرك هذه الأحاسيس الثلاثة وفعاليتها ، ويساعدها في مجاريها ، وله الحظ الوافر في فتح أسرار عالم الطبيعة .

إن العالم في نظر المؤمن مصمم على أساس قوانين وأنظمة دقيقة ومحسوبة ، إن حس حب الاستطلاع يتحرك في ظل الإيمان بالله المدبر الحكيم ، كي يبحث ويسعى في سبيل كشف قوانين وأسرار الطبيعة المبتنية على سلسلة من العلل والمعلولات .

(ويل ديورانت) يقول: « كان (هربرت اسبنسر) يرى أن الكهنة هم العلماء الأول كما هم الأدباء الأول ، فهم الذين بدأوا العلم بالمشاهدات في المراصد الفلكية بهدف تعيين أيام الاحتفالات الدينية ، وكانت هذه

---

(١) سير الحكمة في أوربا : ج ٢ ص ١٨ . (بالفارسية) .

(٢) الإحساس الديني : ص ٧٢ (بالفارسية .

(٣) ميتافيزيك فليسين شاله : ص ١١ (بالفارسية) . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعلومات تخزن وتحفظ في المعابد ، وتنتقل من جيل إلى جيل آخر بعنوان التراث الديني »[1] .

إن دور الحس الديني في تسامي الإنسانية السامية وتعديل الغرائز وتنمية شجرة الفضائل والأخلاق لا يقبل الجدل ، والذين يخطون في المسير الديني يرون تعديل غرائزهم واتصافهم بالصفات الراقية من أهم الوظائف الدينية .

إن الفكر الديني كان من أهم العوامل في تربية حس حب الجمال على طول التأريخ ، إذ لم يخلق الإنسان القديم أكبر آثاره الفنية إلا لتعظيم آلهته ، إن معابد الصين العجيبة ، وأهرام مصر العظيمة وأصنام المكسيك الجميلة والفن المعماري الجميل ، والمحيّر في الشرق الإسلامي كلها من آثار الإحساس الديني .

يعتقد علماء النفس ، أن هناك علاقة بين البلوغ وثورة الإحساسات الدينية ، وأن في هذا العهد من حياة الإنسان يظهر اتجاه خاص إلى المسائل الدينية ، حتى في الأفراد الذين لم يعيروا أي أهمية لها .

ويرى (استانلي) أن : (حد ظهور هذه الإحساسات هو سن السادسة عشرة للشباب، ويمكن أن نحسب هذا الأمر صورة من صور توسعة شخصية الشباب ، إن هذه الإحساسات تأذن للشباب أن يجد العلة الغائية من وجوده في ذات الله سبحانه »[2] .

ولا شك أن نداء الفطرة إنما يتجلى فيما إذا لم يجعل أمامه مانع يسده ، فإن الدعايات والتبليغات المخالفة تقلل من فعالية الفطرة والفكرة الصحيحة ، وإن كانت نتيجة هذه المكافحات للفطرة لا تصل إلى حدّ أن تستأصل جذور الاتجاهات الطبيعية في الإنسان ، ولهذا إذا كان هناك سدّ

---

(١) تاريخ ويل ديورانت : ج ١ ص ١٢١ (بالفارسية) .

(٢) البلوغ : ص ١١٨ (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مانع فإن كُسِرَ بدأت الطبيعة الأصيلة فعاليتها ونشاطها بمحاولاتها الذاتية الخلاّقة المتجلّية .

نحن نعلم أنه قد مر إلى الآن أكثر من نصف قرن على الثورة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ، وعروق الدين بعد حية في أعماق طبقات واسعة من الناس في روسيا ، ولم يستطع القادة الزمنيون بكل ما كانت لهم من محاولات جادة في هذه المدة لمحو الدين والمذهب أن يفرغوا ضمائر الملايين من الإحساس الديني .

وعلى هذا نقول : إن تواجد الأفكار المادية في العالم لا تضر بفطرية الاعتقاد بالله والمعاد ، ولا يمكن أن نحسب هذا الابتعاد والانفصال عن طريق الفطرة من مذهب خاص شاذ ، قبال هذه الأمم والمدارس الميتافيزيقية سواء اليوم أو الأدوار السابقة نقضاً لفطرية معرفة الله ، إذ ما من عام إلا وقد خصّ ، وفي كل شيء استثناء .

ويستفاد من التأريخ أن المذهب المادي الفلسفي أسّس في القرن السادس والسابع قبل الميلاد ، وحماة المذهب المادي في ذلك العهد كانوا على الترتيب عبارة عن :

(طاليس) من فلاسفة اليونان ، المولود عام ٦٢٢ والمتوفى في ٥٦٠ أو ٥٦٧ ق . م .

و (هراكليت) : ٥٣٥ ـ ٤٧٥ ق . م .

و (دموكريت) : ٥٤٠ ق . م .

و (أبيكور) : ٣٤٦ ق . م .

وليست نسبة المادية إلى هؤلاء قطعية ، إذ كتب بعض العلماء مثل (بانكون) في كتابه : (تأريخ الفلسفة) بشأن (طاليس) يقول : « كان يرى أن التغيرات المادية إنما تتكون تحت تأثير من العوامل غير المادية » ، وكتب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بشأن « دمو كريت » يقول : « دمو كريت لم يكن مادياً ، بل كان يعتقد بوجود الأرواح » .

وبدأ المذهب المادي في القرن الثامن عشر ، بالتقدم بين العلماء التجريبيين ، وإن اختلف في بعضهم : هل هو مادي أو لا ؟ ، فمثلاً عد بعض المؤرخين (جان جاك روسو) من حماة المذهب المادي بينما يراه آخرون إلهياً ، ويمكن أن يكون نسب إلى المادّية لمخالفاته للكنيسة وأربابها .

نقل الدكتور (فريد وجدي) صاحب كتاب (دائرة المعارف) عن (روسو) أنه كان يقول بشأن مبدأ الوجود : « كلما أمعن النظر وأتأمل الحوادث التي تتجدد على أيدي قوى الطبيعة ، وما يتلوها من ردود فعل طبيعية وتأثير بعضها في الآخر ، يثبت عندي من طريق الانتقال من نتيجة إلى أخرى ، أنه لا بدّ في السبب الأول من الإرادة والإدراك والشعور ، وعلى هذا فإني أعتقد أن إرادته « الله » هي التي حركت الوجود وأحيت الأموات ، ولكن قل لي : أين هو ؟ وأقول : إنه موجود في السماوات التي يحرّكها والنجوم التي يضيئها ، وليس هو فيَّ أيضاً فحسب بل هو موجود حتى في ذلك الغنم الذي يرعى والطير والحجر الذي يسقط والورقة الخضراء التي يرقصها الهواء وفي كل مكان ، وعلى هذا فكم بعيدة عن العقل تلك النظريات التي تظن : أن هذا النظام نتيجة حركة عمياء وجدت في المادة صدفة ! ليقولوا ما شاؤوا ! ولكني أرى نظاماً مستمراً ، على الموجودات ولا أدرك الحكمة المودعة في هذا النظام : أنا لست ممن يستطيع أن يعتقد أن المادة العمياء ، تنتج موجودات أحياء ، وأن الضرورة العمياء تخلق كائنات شاعرة ، وأن فاقد العقل يخلق موجودات عاقلة حكيمة » ؟! .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله ومنطق العلوم التجريبية

لا شك في أن الأوضاع الاجتماعية والعوامل التأريخية والتربوية ونوعية مشاغل الإنسان لا يمكن أن تخلو من آثار في الاتّجاهات الفطرية ، والحالات الروحية والعاطفية ، وإن كانت هذه الأوضاع المختلفة لا توجب جبراً أو ضرورة في اتّجاهات الإنسان إلا أنها توجد جواً مساعداً له دوره الهام في نوعية اتّجاهه ونظرته إلى الكون والحياة ، بل إنها أحياناً تتجلّى بصورة موانع جادة أمام حرية االإنسان وقدرته على الاختيار والانتخاب .

إن القوى الدماغية في الإنسان كلما عملت في فرع خاص أصبحت أقوى وأكثر تمرّساً في ذلك الفرع ، وفقدت سائر المسائل أصالتها في فكره ، وأصبحت بالنسبة إلى موضوعه المتخصص هو فيه ، كموضوعات فرعية غير أصلية ، وأصبح هو يحكم على أي شيء من نظرته الخاصة ، إن من أشدّ عوامل تضليل الفكر حصره في منطق العلوم التجريبية وعدم درك حدود حجيّة هذا المنطق ، فبما أن الاختصاصيين في العلوم التجريبية يعملون بكل طاقاتهم الفكرية في العلوم الحسية تصبح أفكارهم أجنبية غريبة عن المسائل غير المحسوسة ، وتصل هذه الغربة والبعد عن غير المحسوسات والاعتماد المفرط بنتائج العلوم التجريبية إلى درجة ، أن تصبح التجربة هي المبنى والأساس الفكري لنظرتهم إلى الكون والحياة والأيديولوجية ، ويرون أنها هي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوسيلة الوحيدة للمعرفة والمقياس الصحيح المقبول لها ، ويطلبون حل كل المسائل منها ، إن الغرض من العلوم التجريبية ـ المتكفلة ببيان العلاقات الطبيعية بين الحوادث والوقائع ـ هو أن تربط بين نفس الوقائع والأحداث لا بينها وبين الخالق ، والإنسان حينما يمارس العلوم التجريبية لا يريد أن يلاحظ وجود الخالق فيها ، ولا ينبغي أن نتوقع أن ندرك بمقاييس المحسوسات ، حقائق ما وراءها ، وأن نشاهد الخالق في المختبرات ، إن العلوم لا تستطيع أن تجري تجربة المختبر على وجود الله ثم الحكم له أو عليه من هذا السبيل والقول : إنه ما لم نشاهد شيئاً ولم نتمكن من معرفته في المختبر وبالحسابات الرياضية فلا حقيقة له ! .

لا يمكن أن نجري تجربة نصمم على أثرها على الإذعان بوجود موجود غير مادّي أو بعدم وجوده ، إذ ما يمكن أن نثبته بالتجربة يمكن نفيه بها ، إن العلم والميتافيزيقيا لا تثبت بالتجربة ولا تنفى بها ، وإن آلاف التجارب لا تكفي لإثبات نظرية : أن كل شيء مادّي ، بل إن وسائل هذه المختبرات بأشكالها المعقدة والمتطورة ، لم تتمكن من التطرق إلى العالم المظلم الواسع للعناصر غير المعروفة ، ولم تستطع أن تفهم جميع الواقعيات المكتومة في بطون الذرّات اللانهائية ، بل لم تطلع بعد على حقيقة المادة نفسها .

إن أسلوب التجربة ، وإن كان مفيداً جداً لتطور معرفة الإنسان بنظام الخلقة الدقيق ، بل يمكن أن نجعل أسلوب التجربة أساساً جديداً واضحاً للإيمان بالربّ الخالق عن طريق ملاحظة نظام الخلقة ، إذ إن لاكتشاف المسائل التجريبية نظاماً محكماً ودقيقاً وعلاقات منظمة بدقة ، تحكي عن خالق قادر ، إلّا أن هدف علماء الطبيعة من التحقيق في أسرار العالم والمسائل الطبيعية ، ليس هو التوصل إلى معرفة خالقها ، والعلوم بأيدي هؤلاء المحققين تتكفل دائماً بالعمل على كشف أسرار الوجود فقط ، من دون أن يخرج هؤلاء في ظل العلوم عن حدود معرفتهم المحدودة الضيقة ذات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البعد الواحد ، ودون أن يصلوا عن طريق العلاقات المنظمة لظواهر الطبيعة إلى مرحلة ثانية من المعرفة يشكل مرحلتها الأولى : تجميع كل ما يمكن الوقوف عليه من طريق الإحساس والتجارب ، ثم المرحلة الثانية التالية : تفسيرها والاستنتاج منها فكراً وعقلاً ، يجمعون بالتجارب نتائجها أولاً ، ويدرسون ثانياً بالفكر والعقل معطياتها ، نقول هذا إذ لا يمكن تفسير مجموعة نتائج العلوم المختلفة وارتباطاتها ، وعلاقاتها فيما بينها بصورة مقنعة بدون الاعتراف بوجود الربّ الحكيم .

إلّا أن أسلوب العمل العلمي والفكري أصبح هو دراسة القواعد والتحقيقات بغض النظر عن الله تعالى ، وهكذا يصبح أسلوب الفكر الفارغ عن الله هو أساس الأعمال العلمية ، ويصبح إنسان هذا الأسلوب غريباً أجنبياً عما سوى تلك المسائل العلمية التجريبية ! .

وبما أن حياة الناس العمليّة أصبحت مرتبطة بالعلوم هذه بصورة غير قابلة للتفكيك ، وأصبحت صادرات العلوم التجريبية محيطة بجميع جوانب الحياة المادية ، وحوصر الإنسان في إطارها الرصين بحيث يعسر العثور على الوسائل الطبيعية بين وسائل الحياة المعيشية اليوم ؛ كان من الطبيعي أن تجر هذه الحالة إلى زيادة اعتماد الأفراد بالنسبة إلى هذه العلوم ، وتؤثّر هذه العلوم حتى في أسلوب سيرتهم في الحياة ، وتوجد نوعاً من الترديد والتشكيك في وجود الخالق والغيبيات ، وحينما سكب المنطق العلمي جميع الأفكار والأيديولوجيات في صياغته الخاصة تلوّنت نظرة الناس إلى الكون والحياة أيضاً بلون هذا المنطق ، إلى درجة أن اعتقدوا أنه لا يمكن الإذعان بواقع إلّا على أساس المعرفة العلمية فقط ، وأن لا سبيل إلى معرفة أي شيء لا يتطرّق إليه الإحساس والتجربة ، ولا سبيل إلى إثبات وجوده أيضاً ! .

يقول (بول كلارنس) الفيزيائي المعروف :

« كنت في بداية دراساتي العلمية مغرماً بالأساليب العلمية إلى درجة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أني كنت متيقناً بأن العلم سيكشف يوماً كل شيء ، وكل أسرار ظواهر الطبيعة حتى أصل الحياة ومظاهرها من الفكر الإنساني وغيره ، إلّا أني كلما طالعت ودرست أكثر فأكثر ولاحظت بنظرة عابرة كل شيء من الذرّة إلى المجرّة ، ومن الميكروب حتى الإنسان ، علمت أن المجهولات هي أكثر بكثير .

إن العلم يتوفق إلى أن يشرح جزئيات الذرّة أو أن يبيّن خواص الموجودات الطبيعية ، إلّا أنه لا يقدر على تعريف الروح والعقل البشري ، إن العلماء يعلّمون أنهم يتمكنون من مطالعة وبيان كيفية وكمية كل شيء ، إلّا أنهم لا يقدرون على بيان علّة وجود الأشياء ، وعلة اشتمالها على خصائصها ، إن العلوم والعقول البشرية ، تستطيع أن تكتشف وتقول لنا : من أين جاءت هذه الذرّات والمجرّات والروح ، والإنسان مع ما أوتي من طاقات ، واستعدادات معجبة ، إن العلوم بإمكانها أن تبين فرضية الانفجار الكوني ، وأن هذه الذرّات والنجوم والمجرّات إنما ولدت ووجدت نتيجة انفجار في المادّة الأولى ، إلّا أنهم لا يقولون ما هي المادّة الأولى ومن أين أتت ومن الذي فجرّها ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يعترف كل عاقل بوجود الخالق »[1] .

إن العالم التجريبي الغريب عن أسلوب تفكير الإلهيين إنما يقبل كل ما وافق المنطق العلمي في هذه الحياة ، ويراه مما ينبغي ويكون ، ويرى من حقه أن ينكر اعتبار كل ما لا يلائم أسلوبه العلمي ، إن الأسلوب هنا هو الاعتماد على التجربة وجعلها دليلاً ، فهو يقيس صحة كل استدلال بما يعتمد هو عليه من التجربة فحسب .

إن العالم التجريبي الذي أصبح فكره الديني مغفولاً عنه ولا سيما الأحكام والمسائل الدينية الفرعية المسبوكة في صياغة الأوامر والنواهي ، وهو لا يجد في أبحاثه العلمية أصولاً تفسّر له هذه الأحكام والمسائل بينما هو

---

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٦٦ (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منشدّ بأسلوبه العلمي المتخذ ، وحساس بالنسبة إليه بسبب اعتياده على لسان العلم والقوانين الرياضية ، إن هذا العالم يرى الأحكام العامة الساذجة والطبيعية غير المتكلفة في الدين فارغة من المحتوى وفاقدة للقيمة العلمية .

إن هذا التفكير غلط، إن هذه العلوم مع ما لها من قوانين معقدة ودقيقة للغاية ، والتي لمعرفتها يجب على طالبها أن يتعمق في مباحثها الصعبة والعميقة ، مع ذلك نجد علماءها حينما يدخلون الحياة العملية يخرجون من قوالب هذه العلوم وينفصلون عن اللسان العلمي الخاص بهم ، وإلّا فعليهم أن يحصروا أنفسهم في المراكز العلمية والصناعية والمكتبات وسائر المختبرات التحقيقية .

بإمكان جميع الناس أن يستفيدوا من الوسائل العلمية كالتليفون والراديو ، وهكذا سائر الوسائل العلمية هي مما يمكن أن تتمتع بها العامة بأقل دلالة من الاختصاصيين فيها ، والاختصاصي والخبير لا يعطي المعلومات الفنية والميكانيكية لمن يشرون الوسائل العلمية ، بل إنما يلخص نتائج الأتعاب المضنية للمخترعين في جملات قليلة لبيان كيفية استفادة الناس منها .

وعلى هذا فليس من الإنصاف بل بعيد عن منطق العلوم أيضاً أن نسكب الأحكام الدينية التي لم تأتنا في صياغة قوانين علمية بل ساذجة عامة ، في قوالب من أحكامنا السابقة لأوانها وتصوراتنا وسوابقنا الفكرية غير الصحيحة ثم نعدها فاقدة للأهمية والقيمة العلمية ، ونغفل بذلك عن دورها المصيري وآثارها العميقة في حياتنا اليومية ، إن الأحكام العلمية إنما تكون بليغة فيما إذا كانت بلسان العامة ، وكانت مورداً لإحساس الناس في حياتهم الفردية والاجتماعية .

على أنه لو كان على الأحكام الدينية أن تكون في حدود معرفتنا وتمييزنا وذوقنا ، لما كنا بحاجة إلى النبوّة والأديان ، بل كنا نصنعها ونصوغها بأيدينا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنّ الإنسان يغضّ النظر عمّا يعجز عنه أمام ما يقدر عليه ، وعلماء الطبيعة ومتعلموها اليوم قد اغتروا بمعلوماتهم نتيجة ما حصلوا عليه من تقدم في صعيد العلوم التجريبية حتى أنهم يتصورون أنفسهم أنهم قد سخروا عالم الحقائق وتملكوها ، بينما ليس من المستطاع لأحد في أي زمان أن يدعي الإحاطة بجميع أسرار العالم وكشف أستار عالم الطبيعة أبداً .

يجب النظر إلى الواقعيات بنظرة أوسع ، وأن ندرك أن علومنا إنما هي قطرة لا شيء أمام محيط الأسرار الخفية ، وأن وراء كل اكتشاف علمي يتبدى لنا كثيراً من المجهولات ، وأن البشر قد سخّر كل إمكاناته في سبيل الحصول على معرفة أكثر وأكمل لعالم المادّة هذه ، وكان ما حصل عليه من كل ذلك السعي الحثيث الظفر بعدد من الرموز من الأسرار الكثيرة لهذا العالم ، وخطوات يسيرة في هذا السبيل ، وأن جبالاً من المجهولات (إن صح التعبير) تحيط بالمعلومات البشرية .

يقول البروفيسور (رووايه) : « إن جميع الاكتشافات التي كانت غير ممكنة التصوّر وخارقة للعادة بالنظر إلى الفكر البشري ، إنما حصلت في مدة قصيرة مرّت على اتّساع نطاق التكنولوجيا لا تصل إلى مائتي سنة على الأكثر ، لا تعدّ هذه المائتا سنة بالنسبة إلى أعمار الأجسام والموجودات حتى لحظة واحدة ، فكيف يمكن للإنسان أن يدّعي أنه في هذه المدة القليلة من عمر الاختراعات البشرية قد توصّل إلى أسرار الطبيعة أو أنه سخّرها ؟! . أليس من الأصح للحكم بشأن الاكتشافات البشرية المتزايدة ، أن نصبر أكثر من هذا ولا أقل من مرور ألف عام على عمر التقدّم في التكنولوجيا ؟ والتي لا تعدّ هذه الألف سنة بالنسبة إلى الكائنات حتى لحظة واحدة »[1] .

وإن كلمة (آينشتاين) تأكيد على قلة البضاعة العلمية البشرية أمام أسرار العالم اللانهائية ، إنه يقول : « إن التصوير العلمي للعالم تصوير

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ٢٣٢ . (بالفارسيه) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ناقص وليس صورة حقيقية للعالم ، إذ إن الوصول إلى هكذا صورة حقيقية غير ميسّر عملاً بالنظر إلى ضعف أجهزة الإدراك لدى الإنسان ، وأما الاكتفاء بهذه الصورة الناقصة للعالم فلا ترتبط بالعالم وإنما ترتبط بأنفسنا »[1] .

وعلى هذا فيجب إعادة النظر والتقييم بصورة واقعية لمدى فاعلية المعرفة العلمية الحسية ، وأن نحلل ذلك بعيدين عن كل سوابقنا الذهنية التي هي موانع في سبيل الوصول إلى الحقيقة .

لا شك أن العلوم التجريبية لا تستطيع أن تخبرنا إلّا عن ظواهر المظاهر الطبيعية ، وإن المادة والظواهر المادّية هي التي تدخل في حدود التحقيقات والمطالعات العلمية ، ويمكن ملاحظتها في المختبرات وأن أسلوب العلوم اليوم للوصول إلى أهدافها هو المشاهدة والتجربة ، وبما أن عمل العلوم التجريبية هو ملاحظة العالم الخارجي ، فإذا أردنا أن نثق بصحة قضية أو حكم علمي أو نطمئن إلى عدم صحته كان علينا أن نطبقه على العالم الخارجي فنجرّبها، فإذا طابقت القضية العلمية العالم الخارجي قبلناها وإلا فلا ، فمع الالتفات إلى موضوع وأسلوب العلوم التجريبية علينا أن نتساءل : هل أن الحقائق الميتافيزيقية قابلة للتجربة الحسية أم لا ؟ولأيّ نوع من التحقيق التجريبي يحق أن يتدخل في شؤون الإيمان والعقيدة ؟ وما هي العلاقة بين الله والعلوم التجريبية ؟ .

إن العلوم التجريبية مصباح ينير شطراً من المجهولات حوله ، فلماذا لا يستطيع أن يرفع كل ظلام ؟ أجل ، إن المعرفة بحاجة إلى الإحاطة والشمول ، بحيث يستطيع نظام تلك المعرفة أن يحيط بجميع أجزاء المتعرف عليه وأن يحيط به ، فينتج نظرة شاملة ، وإن سجن المعرفة البشرية في حصار العلوم المحدودة الحسية لا يؤدّي إلى النظرة العامة الشاملة ، بل إنماهو توقف في معطيات التجربة وجهل بأعماق الوجود .

---

(١) مقالات آينشتاين العلمية : ص ٢٢ (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن إيماننا أو عدم الإيمان بالله لا يدخل في مباحث العلوم التجريبية ، إذ لو كان موضوع البحث فيها المادّة فلو فرض عليها أمر غير مادّي لم يحق لها أن تبدي نظراً بشأنه إثباتاً أو نفياً ، إذ إن الدين يعتقد أن الله ليس بجسم مادّي وأنه لا يدرك بالحواس الظاهرة ، ولا يحيط به زمان ولا مكان ، بل هو موجود لا يرتبط وجوده بالأوضاع والأحوال وهو غني عنها عالم بها ، وهو في أعلى مراتب الكمال كل الكمال وأسمى من كل تصوّر يتصوره الإنسان ، وأن عدم دركنا لكنه ذاته وحقيقتها إنما هو لقصور فينا وفي قوانا وطاقاتنا وإمكاناتنا واستعداداتنا .

ولهذا لو طالعنا جميع كتب العلوم التجريبية لما وجدنا مورداً يبحث فيه عن تجربة تتعلق بوجود الله ، وحكماً له أو عليه بالإثبات أو النفي ، إذ أننا حتى لو فرضنا أن الحواس الظاهرة هي الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الواقعيات مع ذلك لم نتمكن من نفي شيء عن خارج عالمنا المحسوس ، فإن هكذا دعوى هي غير تجريبية ولا تستند إلى أي دليل حسّي تجريبي .

لو فرضنا أنه لم يكن لأتباع المدرسة الإلهية أي دليل لإثبات دعواهم ، مع ذلك كان إظهار النظر بالحكم بالعدم على كل ما هو وراء المحسوسات اختياراً غير علمي بل مبنياً على الخيال والوهم ، إن هكذا إنكار بلا أساس ليس من شأن العلم ولا الفلسفة ، بل إنه ينافي منطق التجربة .

يقول (جورج بوليستر) في كتابه[1] : « إن من غير الممكن تصوّر شيء لا يشغل الزمان والمكان ويكون مصوناً عن التحول والتغيير » ! .

إن هذه الكلمات تبدي نوعاً من التفكير ، لا يدري ماذا يريد وعن ماذا يفتش ، إذ لو كان يعلم أنه عماذا يفتش لكان يدرك كيف يجب أن يفتش عنه ، إن (بولبستر) الذي كانت الطبيعة والمحسوسات ميدان عمله الوحيد ، من الطبيعي أن يتلقى بالاستحالة ما كان خارجاً عن عملياته العلمية

---

(١) أصول مقدمات الفلسفة (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعيداً عنها غير ممكن الإثبات بالتجربة الحسّية ، وأن يرى الاعتقاد به منافياً للأسلوب الفكري العلمي ، بينما الحق الوحيد الذي يمكن الاعتراف به لعالم طبيعي ، ولا سيما مع النظر إلى كثرة المجهولات البشرية بشأن هذه الكرة الأرضية والمادة الملموسة غير الحية التي هي مورد مزاولته دائماً ، ومع العلم بأن عالم المادة بجميع رموزها وأسرارها لا تتلخص في هذه الكرة التي نعيش عليها ، الحق الوحيد هو أن يقول : إن ما وراء الطبيعة خارج عن حدود وسائلي العلمية فأنا ساكت عنه ، لا أن ينكره ، إذ كيف يبيح لنفسه أن يدعي دعوى يلازمها معرفة عامة بجميع نظام الوجود ، بينما لا يصل علمه بالنظام العام إلّا إلى حدّ الصفر .

فأي دليل يمكن أن نثبت بمساعدته أن الوجود يساوي المادة فقط ، وأن عالم الوجود يتلخص في الماديات فحسب ؟ وأي عالم للميتافيزيقا استطاع لحد الآن أن يبني إنكاره على أساس علمي ودليل منطقي ؟ وأن يجد برهاناً على عدم وجود شيء خارج حدود الحسّ والتجربة غير العدم المحض ؟ .

إن العلم وإن كان لا يتمكن من نفي كل مجهول بمحض عدم وجود وسيلة للتوصل إليه ، بل إنما يبقى بانتظار اكتشافه يوماً ما ، مع ذلك نرى أن الماديين لا يتكلمون حول وجود الله حتّى بالشك والترديد ، بل يعلن هؤلاء حكمهم العاجل الخاطىء بنفي الخالق بصورة قطعية وصريحة ! .

إن هؤلاء يضعون مقاييس لأشياء خاصة ثم لا يقبلون باستعمال ذلك المقياس الخاص بشيء في مورد شيء آخر ، فمثلاً لا يجوزون استعمال مقياس السطح في خصوص معرفة الحجم ، لكنهم حينما يصلون إلى تقدير عالم المعنى والروح يريدون أن يقيسوا الله والروح والوحي بنفس الوسائل المادّية ، وحينما يعجزون عن معرفة هذه الأمور بتلك المقاييس ينكرونها بلا هوادة ! .

وإذا أراد الإنسان المحصور في حدود المنطق التجريبي أن لا يقبل من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عالم الوجود إلاّ ما أثبتت له التجارب المحسوسة وينكر ما وراءها فليعلم أن هذا طريق اختياره هو وليس نتيجة تحقيقات أو اختيارات للعلوم التجريبية، وأن هذه الثقافة غير الحقيقية إنما هي نوع من أنواع الطغيان الفكري والخروج على الطبيعة والفطرة ، أما الإلهيون فيرون أن الله الذي يريد العالم الطبيعي إثباته بوسائله العلمية وأسبابه الطبيعية فليس هو بالله الخالق ، وأن العلوم المادّية عاجزة عن درك توفيق للوصول إلى الهدف .

يقول الدكتور (ايوى) العالم الفيزيولوجي الشهير : « إن المنطق يثبت وجود الله ولكنه يعجز عن نفيه ، ولعل أناساً ينكرون وجوده كما كان سابقاً إلاّ أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بدليل معقول لإثبات دعواهم ، وإذا كان هناك دليل عقلي على الإنكار أو الترديد في وجود شيء كان له أن ينكر أو يشكك ، أمّا أنا فلم أجد حتى اليوم في مطالعاتي أحداً له برهان صحيح على إنكار وجود الخالق ، بل إني عثرت على دلائل معقولة لا تحصى لإثبات الله »[1] .

* * *

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٢٦٦. (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الاعتقاد بالموجود غير المرئي لا يختص بالله

إن من خصائص الله الواحد الذي دعانا الأنبياء وقادة الدين إلى معرفته وعبادته ، هو أنه غير محسوس بصورة مطلقة ، أزلي أبدي ، في كل شيء لا بمقارنة ولا في شيء لا بمفارقة ، له مظاهر متجسدة في جميع المحسوسات من عالم الطبيعة ، إرادته ظاهرة متجلية في أي نقطة من عالم الوجود ، وإن ظواهر الطبيعة مرآة لتلك القوة والذات العالمية ، ليس غير مرئي فحسب بل إن حواسنا عاجزة عن دركه ، إذ كل ما يمكن أن يجول في أذهاننا إنما هو في إطار المحدودية بينما الله مطلق لا نهاية له .

لا شك في صعوبة تصوّر هكذا موجود لا يدركه الإنسان بحواسه ولا لون ولا سمة له من الماديات ولا يلائم ما جرّبناه من المشاهدات العادية ، وإذا صعب تصوّر شيء على الإنسان هان عليه إنكاره .

والذين يريدون حل مسألة وجود الله في إطارهم الفكري المحدود ونظرتهم الضيقة المادية يقولون : كيف يمكن الاعتقاد بموجود لا نراه ؟ ولكنهم يغفلون أو يتغافلون عن حقيقة : أن الإنسان بمساعدة الحواس الطبيعية وبالنظر إلى محدوديتها إنما يتمكن من درك ظاهر من هذه الحياة الدنيا ، ولا يتمكن من معرفة سائر أبعاد الوجود ، وأنه لا يخطو خطوة خلف الظواهر بمساعدة الأجهزة الحسّية ، كما أن العلوم التجريبية إنما تستطيع أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتقدم بأفكار الإنسان حتى حدود الطبيعة دون ما وراءها .

إذا لـم يستطع الإنسـان أن يدرك شيئـاً من طريق العلوم والـوسـائـل والمقاييس العلمية فما لم يمتلك برهاناً على امتناعه واستحالته لا يملك ردّه وإنكاره بالاستناد إلى عدم انسجامه مع المقاييس المادية التي لديه .

وأما نحن فنكتشف القانون الغيبي من خلال مجموعة من الظواهر التي لايفسّرها إلاّ ذلـك القانـون الغيبي . ولو لم يمكن إثبـات حقيقة علميـة إلاّ بالإحساس المستقيم المباشر ، لخرج أكثر الحقائق العلمية عن كونها ثـابتة علمية إذ لا بدخل كثير منها في الحس والتجربة .

لا يـوجد عـاقل يجعـل أساس إنكـاره للواقعيات المـادية عـدم رؤيته وإحساسه لها في مسائل حياته اليومية ، ولا يتّهم بالنفي كل ما لم يدخل في حوزة إحساسه من الماديات ، فكيف بالحقائق غير المادية .

إننا في التجارب العلمية فيما إذا لم نجد علة لمعلول خاص لا نحكم ببطلان قانون العلية ، وإنما نقول : نحن نجهل بالعلة الخـاصة وهـذا يعني استقـلال قانـون العليـة عن التجـارب العلميـة ، وعـدم صحّـة نفي العليـة بالتجربة .

هل أن وجود كل ما نقبله ونعتقد بوجوده مما رأينـاه بأم أعيننـا ؟ وهل نحن في هذه الدنيا المادية نرى كل شيء ونحسّ به ثم لا نحسّ بوجود الله ؟ بل يعلم جميع الماديين أن كثيراً من معلوماتنا هو من الحقائق والقضايا غيـر المحسوسة ولا المأنوسة من قبل ، وأن الموجودات الخفيـة كثيرة في عـالم الوجود ولا سيما بالنظر إلى الحقائق الكثيرة التي اكتشفها التقدم العلمي في هذا العصر الحاضر ، وأن من أوسع الفصول التحقيقية العلمية لعلماء العالم الطبيعي اليوم هي مسألة تبدّل المادّة بالطاقة .

نفس هذه الموجودات والأجسام الطبيعية المرئية حينما تريـد أن تبقي من نفسها طاقة كان عليها أن تبدّل صورتها الأولى حتى تتبدّل إلى الطاقـة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهل هذه الطاقة التي تدور على أساسها كثير من الانفعالات المادّية قابلة للرؤية أو اللمس ؟ .

نحن نعلم أن الطاقة ذات قدرة ، أما ما هي ماهيتها فهذا سر غير مكتشف، إن بعض النتائج العلمية حصيلة الاستدلال والبرهان لا المشاهدات العينية ، إن معرفة أوضاع الذرّات الغاية في الصغر إنما تحصل من طريق الاستنتاجات المستندة إلى المشاهدة والتجربة ، وإن الاطلاع على الحقائق العلمية المتعلقة بفيزياء الذرّة إنما يحصل من طريق الاستدلال ، ولو لم تكن الآثار الظاهرة لبقي الإنسان جاهلاً بما في بطن الذرّة من الواقعيات والحوادث .

هذه الكهرباء الجارية في بنائنا العلمي وحضارتنا وحياتنا لم يرها فيزياوي في المختبر ولا أي فرد يزاول الوسائل الكهربائية الالكترونية ، ولم يزنها ولم يحس بنعومتها أو خشونتها ولم يسمع حسيسها ولم يلمسها أبداً ، بل إن من غير الممكن أن يرى أحد عبور الكهرباء في السلك أبداً ، اللهم إلاّ عن طريق التجربة والوسائل الالكترونية .

إن الفيزياء الجديدة تقول : إن الأشياء التي نحسّ بها صعبة جامدة هامدة لا يرى أي أثر للحركة فيها ، ولكنها على الرغم من ظاهرها هذا هي مجموعة من ذرّات لا صعبة ولا جامدة ولا ثابتة ولا هامدة ، بل ليست إلاّ حركات متحوّلة متغيرة ، وإن ما تراه أجهزتنا البصرية والحسّية كأنها ثابتة غير متحركة هو غير ثابت ولا ساكن ولا هادىء ، بل يحيط بها السير والحركة والدوران ، من دون أن تكون مدركة لنا من طريق الإحساس المباشر .

إن للهواء الذي يحيط بنا وزناً ثقيلاً ، والبدن دائماً تحت وطأة هذا الثقل ، يتحمّل كل شخص مقدار ستة عشر ألفاً من الكيلوغرامات من ثقله ، وحيث يبطل الثقل من أثر الضغط الداخلي للبدن فلا نحسّ بألم الثقل هذا ، هذه حقيقة ثابتة علمية لم يعلم أحد بها قبل (كاليلة) و (باسكال) ولم تدركه حواسنا أبداً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل حتى الصفات التي يعددها العلماء بالنسبة إلى العوامل الطبيعية على أساس التجارب الحسية والاستنباطات العقلية ليست مدركة بعقولنا مباشرة ، فأمواج الراديو موجودة في كل مكان وغير محسوسة ولا يخلو محل من قوة الجاذبية المادّية من دون أن يقل شيء من تلك المادة أو يزيد عليها .

إن الهدف من جميع التحقيقات العلمية والذي نحصل عليه منها هو مطالعة الآثار الجزئية المحسوسة من المادة للتوصل إلى العوامل الخفية والقوانين العامة فيها .

يخبروننا في علم الجيولوجيا عن تشكيل طبقات الأرض قبل ملايين السنين ، ويتكلمون لنا عن أشكال الانكماشات والطبقات والفسيلات وإحاطة المحيطات بكثير من الجبال والصحارى الجرداء اليوم ، بينما لم يكن أحدهم يشاهد هذه الماجريات .

والمفاهيم الذهنية كالعدالة والجمال والمحبة والعداوة والبغضاء والعلم ليس وجودها معيناً محدوداً قابلاً للرؤية ، وليس لها أي أثر فيزياوي ، ومع ذلك نحن نعدها من الواقعيات ، وأخيراً فماهية الكهرباء وأمواج اللاسلكيات والطاقة لا يعلم بها الإنسان ، وليس له علم بماهية الألكترون والنيوترون ولا يعلم بوجودها إلا عن طريق آثارها ونتائجها فقط .

ولا شك في وجود الحياة ولا يمكننا أن ننكرها ، ولكن كيف يمكننا أن نقدرها ونقيسها ؟ وبأي وسيلة نتمكن من تقدير وقياس سرعة سير الأفكار والأوهام والخيالات والظنون والتصوّرات ؟ .

يقول البروفيسور (ستانلي كونكدون) : « أنا كثيراً ما أطلب من تلامذتي أن يكتبوا لي بتطبيق القوانين الكيماوية على عملية تفكير فيكتبون لي عن طول العملية بالسانتيمتر ووزنها بالكيلوغرام ولونها وشكلها وحجمها ومدى الضغط والجاذبية الداخلية فيها وفاعليتها وحركتها وجهة الحركة وسرعتها . . ولكنهم لم يتمكنوا أن يبيّنوا عن العملية الفكرية بتعبير فيزياوي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو معادلة رياضية ، اللهم إلاّ أن توجد لغة جديدة تفقد فيها كلمات الطول والوزن ونظائرهما معناها الخاص الذي كان لها في علم الفيزياء .

إنّ علوم المعرفة مجربة ولكنها أيضاً معرضة للخطأ والضلال والتيه والضياع ، ولا صحة ولا قانونية لها في الحياة إلاّ في حدودها الخاصة ، فإنها محصورة بحصار المعلومات الكمية ، وهي إنما تبدأ وتنتهي بالاحتمالات لا باليقين ، ونتائجها ولا سيما في التقديرات والارتباطات بين الظواهر المختلفة تقريبية معرضة لخطأ الحدس والتخمين وهي مؤقتة غير مقطوع بها ، ولا تلبث أن تتغير بالحصول على معلومات جديدة ، إذ لا نهاية للاستنتاجات العلمية ، والعالم يقول : إن الواقعيات حتى هذا الوقت الحاضر كذا وكيت ، وإن مدركاتنا الشخصية بالنسبة إلى ظواهر الطبيعة نسبية محدودة .

ولا واقعية في هذا العالم المتلاطم العجيب يمكنها أن تنفي آثار فعالية الله المطلق أو تثبت عدمه »[1] .

وعلى هذا فواضح جداً أن إنكار ما وراء المرئيات والمسموعات بعيد عن المنطق والأصول العقلية المتعارفة ، لماذا يستثني منكرو الله تطبيق الأصل المعمول به في جميع المسائل العلمية بشأن القوّة القاهرة للطبيعة ؟ .

لا ننسى أننا محبوسون في أبعاد المادة ، ولا يمكننا أن نتصوّر الموجود المطلق في أنظارنا كما نتوقع ، نحن إذا قلنا لقروي عادي : هناك مدينة في العالم كبيرة وسيعة مليئة بملايين البشر تسمى (لندن) تصوّر في ذهنه شكل معمورة كبيرة أكبر من قريته تلك بعشرات المرات بنفس الكيفية الخاصة في البناء والأزياء ونوعية العلاقات والمعاشرات ، ويتصور أن وضع الناس كأهل قريته في جميع الخصوصيات ! .

ولإصلاح فكره البعيد عن الواقع بالنسبة إلى لندن ، فالشيء الوحيد الذي نتمكن أن نقوله هو : إن لندن بلاد معمورة ولكنها ليست كبلادكم ولا

---

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٣٤ (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوضع السائد هنا نفس الوضع هناك .

كذلك الذي نقوله بشأن الله الخالق : إنه موجود حي قادر عليم لا مـن نوع هذه الموجودات والعلوم والقدرات ، وبهذا نتمكن من أن نخرج شيئاً ما عن بلاء المحدودية ، وإن تصوّر حقيقة ذات المادّة الأولى غير ممكنة أيضاً .

إن المحسوسات وإن كانت من أوضح وأدق معلوماتنا في نظرنا لكننا لا يمكننـا الاعتماد عليهـا فقط في المسائـل العلمية والفلسفيـة ، بل يجب أن نعرف حقيقتها وماهيتها ومدى مساعدتها للإنسان على كشف الحقائق بعيدين عن النظرات المتعصبة ، فـإن المحسوسـات في غير هـذه الصورة ستغشنـا وتضللنـا ، إذ إن الإدراكات الحسيـة إنما تتعلق بكيفيـات معينة من ظـواهر المحسوسات لا بجميعها ولا بغير المحسوسات من الجواهر والذوات ، وهي لا تتمكن من الإدراك إلاّ في حدود خاصة .

هذه العين التي هي أوثق وسيلة لدرك الـواقعيات تصبـح في كثير من الموارد عاجزة عن رؤية الواقعية ، فلا ترى من الأنـوار إلاّ ما لم يكن طـول موجته أقل من (٤٪) ميكرون ، وأكثر من (٨٪) ميكرون ، ولهذا فهي لا ترى أشعة ما وراء البنفسجية وما وراء الحمراء ! ، وقد خصصت كتب الدراسات العلمية النفسية وغيرها فصولاً هامة للتعرّض لأخطـاء الحواس ، إن الألـوان التي نعرفها في هذا العالم الخارجي هي ليست في الحقيقة ألواناً ، بل هي ارتعاشات بطول أمواج مختلفة ، فالعيون تحس بطول أمواج مختلفة من النور وبميكانيكية خاصة ، فالتي ندركها بحواسنا تتحدد بحدود قدرتهـا ، وبعض الحيوانات ترى بعض الواقعيات بألوان مختلفة .

ولم يتّضح في التحليل العلمي بعد كيفية درك حاسة البصـر للألـوان المختلفة ، ولم يخرج التحقيق المعمول به بهذا الصدد والنظريات المبـررة عن صورة فرضيات ، والرؤية بعد مبهمة !

ولإدراك مدى تغرير حاسة اللمس بإمكانك أن تملأ ثلاث كؤوس من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الماء ، أولاها حارة جداً ، والثانية باردة جداً ، والثالثة فاترة ، فتدخل إحدى يديك في الحارة والأخرى في الباردة ثم تخرجهما فتدخلهما في الفاترة ، فإنك سترى ـ بكل عجب ـ أنك تحس بإحساسين متضادين ، فإحدى يديك تحسّ ببرودة الماء جداً ، وبالأخرى تحسّ حرارته الشديدة ، بينما الماء واحد وله درجة واحدة من الحرارة .

والعقل يقول : لا يمكن أن يكون الماء في لحظة واحدة بارداً وحاراً ، بحالتين متضادتين ، وأن هذا من خطأ اللامسة التي فقدت إدراكها بتأثير من المياه السابقة ، فما تحسه الآن يتنافى وحقيقة الأمر ، وإن العقل يؤكّد خطأه .

وعلى هذا فكيف يمكننا أن نعتمد على الإحساس فحسب بدون قيادة عقلية ومقاييس فكرية ؟ وهل من سبيل للأمان من هذه الأخطاء الحسية غير الإدراكات العقلية ؟ أجل هو الذي يتكفل بإصلاح مدركات الحواس ، وهو فوق الحواس .

وعلى هذا نقول : إن المحسوسات تفقد قيمتها بعنوان مدركات واقعية ، وإنما لها قيمة علمية ، وإن الذين يحصرون اعتمادهم في مطالعاتهم على الحواس فلن يوفقوا إلى حل مسائل الوجود ولغز الحياة . .

وما علمناه بخصوص إدراك الحواس للواقع ينتج لنا : أن الحواس لا تقدر وحدها أن تصل بالإنسان إلى العلم اليقيني وأن تقوده إلى الحقيقة حتى في المحسوسات ، فضلاً عن المسائل التي لا سبيل للحواس إليها فكيف تبدي بشأنها النظر ؟ .

إن أتباع المدرسة الميتافيزيقية يعتقدون بأنه كما أن أسلوب التحقيق والمعرفة في العلوم الحسية هي التجربة ، كذلك في معرفة المسائل الميتافيزيقية يكون أسلوب التعقّل هو الوسيلة لاكتشاف الحقائق .

كتب المحقق الشهير : (كميل فلاماريون) في كتابه : (أسرار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموت) يقول : « إن الناس يعيشون في صحراء من التيه والجهل والضلال والضياع ، ولا يعلمون أن هـذا التركيب الجسمـاني للإنسـان لا يقدر على قيادته إلى الحقائق ، وأن هذه الحواس الخمس تغشه وتخدعه وتغريه في كل شيء ، وأن الشيء الوحيد الذي يهدي الإنسان إلى الحقائق هو العقل والفكر والدقة العلمية .

إن العقل والعلم يحكمان اليوم بوجـود ذرّات من الأشياء وفي الهـواء والقوى والطاقات التي لا نراها ولا يمكننا إحساسها بأي واحد من حواسنا ، وعلى هذا فمن الممكن وجود أشيـاء وموجـودات أحياء خـارجة عن حـدود حواسنا .

فإذا ثبت بالدليل العلمي عدم قدرة الحواس الظاهرة على معرفة جميع الموجودات ، وأنها قد تغشنا وتخدعنا وتغرينا بخلاف الواقع ، فلا ينبغي لنا أن نتصور حصر جميع الموجودات فيما ندركه بحواسنا ، بل علينا أن نذعن بخلافه ، وقبل اكتشاف الميكروب لم يكن أحد يتصوّر ملايين الميكـروبات في أطـراف الأجسـام ، وأن حيـاة كـل حي معـرّضـة لتجـوال أنـواع هــذه الميكروبات ولذلك نحن نقول : إن الذي يقودنا إلى الواقعيات بصورة كاملة هو العقل والفكر » .

وبناء على ما سبق نكرر : أن لا قدرة كافية لحواسنا حتى على معرفة المحسوسات والمشهودات ، فإن الإدراكات الحسية صور عن ظواهر الحياة من دون الـوصول إلى أعمـاقها ، ودون أن تقـدر على رؤية مستقبـل ومصير ظاهرة خاصة ، لكننا بالتحليل الفكري وتعمق النـظر نستطيـع الوصـول إلى أعماق حقائق الأشياء » .

وخلاصة القول : إن المعرفة الموثـوق بها هي التي تكـون بعيدة عن قصر النظر والحكم بالظواهر ، بل قرينة للتحقيق الدقيق الفكري والعقلي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

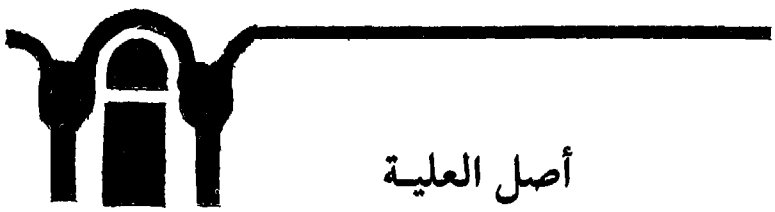

أصل العليـة

إن أصل العلية قانون عام شامل ، وهو أساس لجميع المساعي العلمية أو العادية للبشرية ، إن مساعي العلماء للكشف عن علة أية حادثة طبيعية أو اجتماعية ، إنمـا هي لعدم قبـولهم أن تتحقق ظاهـرة طبيعية ، أو اجتمـاعية بدون تدخل العلل والعوامل .

إن تحقيقـات العلماء والمتفكـرين في العالم اليـوم قد أقـدرتهم على المعرفة الأكثر بالنظام القوي الحاكم على الطبيعة ، وإنهم كلما تقـدّموا في طريق العلوم والصناعات أكثر فأكثر التزموا بهذا الأصل أكثر فأكثر ، إن علاقة العلية وعدم وجود ظاهرة أو حادثة بدون علة من أقوى الدلائل العقلية وأوضح الأفكار البشرية ضرورة ، والحاجة إلى العلة أمـر فطري طبيعي لهـا أفعالهـا وردود أفعالها في أفكارنا بصورة أتوماتيكية عفوية .

إن الإنسـان غير المتحضـر أيضاً كـان يحـاول كشف علل الحـوادث والظواهر ، إلاَّ أنه لحرمانه من القدرة العلمية كان يفسر المسائل بالاستناد إلى الأرواح غير الطاهرة أو الطاهرة ، وإن الفلاسفة إنما أخذوا مفهوم العلية من ضمير الإنسانية وصاغوا لها المفاهيم الفلسفية .

نحن المحصورين بين جدران المـادة لم نصادف في حيـاتنا الـوقوف على صدفة كما يقولون ، بل لم يتفق لأحد في طول تأريخ العـالم أن يقف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على صدفة لا علة لها كي يتشبث بها القائلون بالصدفة في خلقة الكائنات .

إن الدقة والحساب والمقايسة نتيجة للفكر والإرادة والقدرة في الفاعل الذي يطرح عمله على أساس برنامج وهدف خاص ، أما ما يحدث على يد عامل غير عاقل فترى الهرج والمرج واللانظامية تقطر من كل زاوية من زواياه ، فما هي هذه الصدفة التي تقود الحياة من مطلع فجرها حتى الآن بهذه الكيفية العجيبة من حيث الدقة والنظام ؟! فهل أن هذا النظام وليد الصدفة والاتفاق العفوي ؟! .

من رأى ومن ادّعى حدوث ظاهرة بدون سبب وعلة في أيّ من العلوم المادية والإنسانية ؟ ، إنّ استدامة سلسلة العلل والمعاليل حتى اللانهائية والقصور عن معرفة العلة الأولى لا يبرر إنكار العلة والوقوف على المدرجة الأولى من العلل بعنوان أنها هي النهاية ، إن العالم إن لم يكن وليد حكمة عميقة بليغة وإرادة عالمة وتدبير هندسي منظم يحفظه عن كل تحريفة وطغيان عن نظم الطبيعة وقوانينها الحاكمة عليه ، لكان معرضاً لخطر الانهدام في كل لحظة ، إذ لو وجدت ظاهرة على أساس الصدفة والاتفاق الأعمى في إحدى مراحل الحياة المنظمة لكان وجود هذه الصدفة عاملاً مساعداً على فناء العالم ، حيث إن أصغر خلل في النظام وتوازن عناصره وأبسط اختلال في قوانين العالم كان كافياً لاصطدام الأجرام السماوية وتفجرها وبالتالي انعدام العالم .

لو كانت خلقة العالم على أساس الصدفة فلماذا نرى الماديين يفسرون وجوده على أساس نظام مدروس ومدبر لا مجال للصدفة فيه ؟!

لو كان العالم كله وليد الصدفة فكيف يكون ذلك الشيء الذي يوجد من غير صدفة ؟ وما هي مميزات وخصائص الموجود من غير سبيل الصدفة كي نلاحظ تطبيق التعريف فنرى هل هو ينطبق على مختلف الظواهر المتنوعة في هذا العالم ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينما لا تجد في نظام الوجود موجوداً على أساس الصدفة والإهمال والتحولات الاتفاقية ، بل ليس في مصنع الخلقة ظاهرة لا ترى فيها آثار الفكر والتدبير والدقة ، وإن خصائص الآثار هي التي تدلنا على خصائص المؤثر .

لو كانت الصدفة تولد النظام والتوازن للزم أن يكون ما وجد بهندسة ومحاسبات غير منسجم ولا متوازن ، إذ أن الهندسة والمحاسبات تتنافى مع الصدفة ، ولهذا نقول : إن فرض الصدفة أساساً لنظام العالم لا يقوم على أي برهان منطقي أو دليل علمي ، ولا يمكن أن تفترضها كطريق حل مقبول لنظام الوجود .

إن استعمال كلمة الصدفة في بعض المسائل إنما هو عن عدم معرفة دقيقة بمعناها لا مع التوجه إلى ذلك ، وإنما يستمسك بها أصحابها ما لم يتوصلوا إلى معرفة بالقوانين الحاكمة على الظواهر والحوادث ، وحينما تكتشف العلة الحقيقية للحوادث المعقدة ، أو يكتشف القانون الحاكم على ظاهرة خاصة في ظل التحقيقات العلمية المستمرة أودعت هذه الكلمة إلى ملف الكلمات المتروكة ، وعلى هذا نقول : إن التعبير بالصدفة ليس حكماً علمياً نهائياً ، ولا يبقى له مجال بعد المعرفة العلمية واكتشاف رموز نظام العالم .

يقول (فرانس بيكن) إحدى شخصيات النهضة العلمية الأوروبية : « يمكنني أن أؤمن بجميع الأساطير ، ولا يمكنني قبول أن يكون هذا العالم موجوداً بلا علم ولا شعور حاكم على خلقه ، نعم يمكن لفلسفة سطحية غير عميقة أن تسبب إلحاد الإنسان ، بينما الفلسفة العميقة توجب الإيمان بالأديان ، أجل إذا نظر الناظر إلى العلة القريبة للأشياء ولم يتجاوزها أمكن أن لا يعتقد بوجود الخالق ، ولكنه لو نظر إلى جميع سلسلة المعلولات لآمن في النهاية بالمشيئة الأزلية للإله الواحد »[1] .

---

(١) تاريخ فلسفة (ويل دورانت) ص ١٦٣ج ١ : بالفارسية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويناسب هنا أن نستمع إلى حوار بين « نيوتن » الرياضي والمنجم الإنكليزي المعروف مع أحد أصدقائه الماديين . .

أوصى (نيوتن) إلى رجل ميكانيكي ماهرفنان أن يصنع له صورة مصغرة عن المنظومة الشمسية ، فصنع له ما أراد ، وكانت هذه الصورة (الماكيت) ذات مركز وسيارات حولها ترتبط بعضها ببعض بأسلاك، وهي تدور بأسلاكها في مدارات خاصة حول ذلك المحور في مركز الدائرة .

ذات يوم كان (نيوتن) في مكتبه ، ومعه صديقه الميكانيكي صانع الصورة الفلكية ، إذ دخل عليه صديقه العالم الماديّ ، وما إن وقع بصره على الصورة الفلكية (الماكيت) للمنظومة الشمسية حتى بهر بجمالها وظرافتها ، ولما حرّك محرّك أسلاكها رأى أن السيارات المعدنية أخذت تتحرك حول محورها على الأسلاك ، صاح : شيء جميل ! من صنع هذا ؟ ، أجاب (نيوتن) : لا أحد ! إنما وجدت بالصدفة والاتفاق هكذا !

قال العالم الماديّ : لعلك لم تفهم ما أقول ، أنا سألتك : أيّ الميكانيكيين صنع هذا (الماكيت) ومن صمم له هندستها ؟

قال (نيوتن) : لقد التفت إلى سؤالك وكان كلامي جواباً لسؤالك حينما قلت لك : لا أحد ، وإنما وجدت بالصدفة وحدها أي أن موادها تجمعت وتشكلت بهذا الشكل بصورة اتفاقية عفوية .

قال العالم المادي ـ وهو ينظر إلى (نيوتن) بحيرة ومرارة ـ : صديقي (نيوتن) ! هل تتصور أني أحمق أنسب صنع هذا الماكيت إلى الصدفة ، وصانعها لا بدّ أن يكون أستاذاً ماهراً ذا ذوق ونبوغ ؟ .

حينئذٍ قام (نيوتن) من خلف منضدته ، وأغلق الكتاب ووضع يده على كتف صديقه المادي وقال : صديقي ! إن ما تراه وتسأل عن صانعه ليس إلّا ماكيتاً صغيراً عن نظام واقعي عظيم للمنظومة الشمسية ، ومع ذلك لا تقبل أن يكون قد صنع لوحده وبالصدفة ، من دون أن يكون له صانع عالم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مستهدف ، إذن فلماذا تصرّ على عدم وجود خالق عالم لنفس المنظومة الشمسية بما لها من عظمة وسعة وتعقيدات ، وتقول : إن الصدفة أو المادة غير الشاعرة هي التي صنعتها ؟! .

فخجل العالم الماديّ ، وسكت لا يحير جواباً أمام منطق (نيوتن) القويّ والصريح .

وهكذا لام (نيوتن) صديقه العجول الذي كان يعاند ويكابر وينكر الخالق ويجانب الحقيقة .

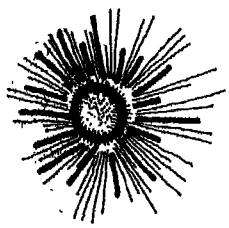

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأصالة في الحياة

يقول العلم اليوم : إن الحياة هي التي توجد الحياة ، وأن حياة الأحياء إنما تبقى وتستمر عن طريق التناسل والتوليد ، ولم ير لحد الآن أيّ خلية حية تولد من مادة غير حية ، حتى في الأحياء ذات الحياة الدنيئة كالزعانف والسلاحف والفطائر ، فما لم يكن مولدها متمتعاً هو بالحياة في محيط حيّ لا يمكن أن تولد حية وتنمو .

يقول العلم : قد مرّ على الكرة الأرضية زمان طويل لم يمكن الحياة عليها لحرارتها العالية ، وحينئذٍ لم يكن على وجه الأرض خضرة ولا أنهار ولا عيون ، بل كان فضاؤها مليئاً بالمعدنيات المذابة والبراكين المتفجرة ، وبعد أن برد ظهرها ، لم يكن يوجد عليها موجودات غير آلية حتى آلاف السنين ، وخلاصة القول : إنه لم يكن هناك أيّ أثر للحياة بين التحولات التي كانت تطرأ على سطح الأرض آنذاك ، إذن فكيف وجدت الحياة عليها ؟ .

لا شك أن الحياة إنما وجدت على هذه الكرة بعد مدة من ظهورها أكثر من ثلاث ميليارات من السنين ! أما كيف كان ذلك فهذا أمر مجهول لدى العلم .

مرت قرون والعلماء المحققون يسعون وراء كشف سر الحياة هذه الظاهرة الغريبة في المختبرات العلمية ، ولكنهم لم يقتربوا حتى الآن من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اكتشاف هذا اللغز العجيب ! .

كتب (بروتو بور كل) العالم والمحقق الألماني في كتابه : (العوالم البعيدة) يقول : « الحياة ! أي كلمة ساحرة ! هل وجدت الحياة من العدم ؟! هل يمكن أن توجد الآليات من غيرها ؟! أم أن هنا يداً خالقة قادرة مطلقة ؟ قد يقال : لعل الحياة جاءت من الكرات الفلكية الأخرى إلى سيارتنا هذه ؟ إذ أن الميكروبات النباتية الحية التي تسبح في جوّ إحدى الكرات الفلكية ترتفع إلى حدّ كبير ، يمكن لأشعة الشمس أن تدفعها إلى فضاء كرات أخرى تصل إلى سطح تلك الكرة فتنمو وتتطور هناك .

ومع هذه الفرضية لم يتقدّموا في سبيل حلّ اللغز الكبير ، حتى بمقدار رأس إبرة ! إذ حتى في هذه الصورة تبقى كيفية ظهور الحياة ـ سواء في إحدى الكواكب التابعة للمنظومة الشمسية ، أو التابعة للشعرى اليمانية ـ مجهولة غير واضحة .

وكما أنه لا تتكون الساعة من تكديس اللوالب والنوابض كذلك هنا ما لم نجد القلب المحرّك ونداء : كن حياً ، فلا نجد الحياة » ! .

نحن نعلم أن المادة في ذاتها فاقدة للحياة ، وأن ليس لأيّ عنصر ماديّ لوحده خصوصية الحياة ، إذن فلا يمكن أن نفترض الحياة نتيجة تركيب منسجم لذرات متشكلة من المادة ، حيث نجد أمامنا هذا السؤال الملح : لماذا لا تتكرر ولا تكثر المادة الحية إلّا عن طريق التناسل والتوليد ؟ ، إن التفاعلات الكيماوية مستمرة في الأجسام غير الحية ولا نجد فيها أيّ أثر للحياة ، وأما القول بأن المادة تميل إلى التركيب ، وأن الحياة نبعت فيها في تطوراتها المتكاملة ، فإنما هو وصف لمظاهر الظواهر الحية التي نحسها ، وليس بياناً لكيفية وجود الحياة ومعرفة سببها .

إن أجزاء المادة لم تكن تختلف فيما بينها بالأصالة ، فلماذا تركب بعضها مع بعض وتأخر كثير منها ، فتمتع بالتالي بعضها بالحياة وحرم البعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآخر ؟ من أين نشاهد الاختلاف وما هي علة هذا الاختلاف في الحياة بين موادها ؟ .

إنما الشيء الذي يحصل من تركيب عنصرين أو عناصر متعددة ، هو أن يهب العنصر ما فيه من خصائص للعنصر الآخر المتركب معه ، ولكنه كيف يهب ما لا يملك ؟ أجل إن العناصر تجد بفضل التركيب خاصة عامة غير خارجة عن إطار خواص آحادها ، إلاّ أنّ الحياة بما لها من خصائص منفردة لا شبه بينها وبين خواص المادة ، إذ للحياة تجليات ليست للمادة ، وهي تتحكم في المادة من كثير من النواحي ، وإن كانت هي تتبع المادة في الهيكل . ما أن تسطع أشعة الحياة على المادة حتى تتجلى فيها الحركة والإرادة والإدراك والمعرفة .

إذن فتفسير الحياة بردود فعل كيماوية غير وجيه ، يقول أحد العلماء : « ليست الحياة نظاماً جامداً لا روح فيه كالمعمل ، بل هي نظام فيه قدرة التجديد والتكرار لنفسه وكذلك التفوق والتسلّط ـ إن صحّ التعبير ـ على نفسه ، ومعه مرشد وهاد طبيعي فطريّ يهديه من الداخل والضمير ، فطرة مكدسة مكنوزة في نسيجه تتكفل بتجديد ما تحلل وتلف » .

ما هو هذا العامل الذي يصنع الخلايا أنواعاً مختلفة ومع برامج متنوعة تأخذ مكانها في جسم منظم ، يحضر الخلية الجنسية التي تنقل مميزات وخصائص الآباء إلى الأبناء بلا استثناء ، وبدون قصور أو خطأ في أداء المهام والوظائف والتكاليف والمسؤوليات ؟

نحن نرى أن للخلايا الحية خصائص في تركيبها ، فمن خصائصها ترميم الخسائر وتجديد ما يتلف واستعداد التنوع ، وحفظ النوعيات ، فكل خلية في جسد الإنسان تعمل في الزمن الذي ينبغي أن تعمل فيه بصورة متناسبة ، وأما توزيع العمل والوظائف فأمر محير ، تتقسم بمقدار الحاجة إلى تكوين الأجسام ، وتذهب كل خلية إلى مكانها من المخّ ، والرئة والكبد والقلب والكلى ، ولا يرى أيّ قصور في وظائف الخلايا الجاثية المنتظمة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مواضعها ، فهي تدفع المواد الزائدة غير المفيدة وتحفظ الحجم المناسب لكل شيء .

إن نسبة هذا التقسيم العجيب ـ الذي يوجد لتتناسب وتتوازن الأجزاء اللازمة في أجسام الموجودات ـ إلى العوامل الميكانيكية غير المدركة، تفسير قاصر جداً ، وأيّ إنسان حرّ التفكير يقبل هذا المنطق ؟! .

ولهذا نحن نقول : إن الحياة نور يشعّ على المواد المستعدة لقبولها من أفق أعلى من المادة ، فيجعلها تتحرك وتفكر ، إن هذه هي إرادة الرب القدير وقدرته وحكمته الجامعة البالغة التي تفيض بمعجزة الحياة بجميع خصائصها على المادة غير ذات الروح ، وإن الإنسان يرى بين هذه المواد المتحركة جوهرة الحياة السيالة كحقيقة شاعرة ، ويشاهد بها الله في خالقية مستمرة وإيجاد وتطوير دائم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

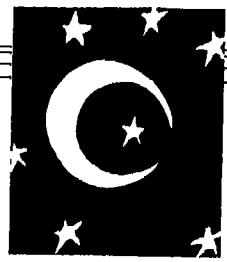

مظاهر قدرة الله في الطبيعة

إن عالم المادة والطبيعة كوحدة مصنوعة هي أحسن وأتمّ وأعمّ برهان لمعرفة الخالق ، وإن في هذه التحولات المادية ، ما يكشف عن الإرادة الحكيمة لذلك الناموس الأزلي ، وما يثبت أن شعاع وجوده الخالد هو الذي يمدّ الموجودات بالحياة ، وأن جميع الكائنات إنما تتلقى وجودها وتقدمها وتطورها وتكاملها منه سبحانه .

بإمكاننا أن نسلك لمعرفة الخالق سبيلين أساسيين : أحدهما طريق الدلائل العقلية ، والآخر طريق البراهين الفلسفية ، بهذين السبيلين نستطيع من التوصل إلى تلك الحقيقة المطلقة ، وأن نكمل معرفتنا ونثبت عقيدتنا بها ، لكن طرق الاستدلال معقدة إلى حدّ ما ، وإنما تلذّ للعلماء فقط ، بينما المطالعة في أسرار كتاب الخلقة والموجودات المختلفة ، الكتاب الذي تشهد جميع صفحاته بضرورة مدخلية العقل العالي في خلقته ، مطالعة هذا الكتاب وإن كانت أيضاً برهانية للإيمان بالخالق الحكيم الذي ليس مجموع نظام الكائنات بكل عظمته وسعته إلّا جزءاً ضئيلاً من مظاهر قدرته ، إلّا أنها برهان ساذج وبسيط ليس فيه ثقل وتعقيد البراهين الفلسفية ، وهو من ناحية أخرى طريق مفتوح لعامة الناس ، فبإمكان جميع الناس من المفكرين والعلماء والعوام البسطاء أن يفيدوا منه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بإمكان كل أحد أن يرى ـ حسب رؤيته واستعداده ـ في مظاهر الخلقة آثار التركيب والتوازن والتدبير ، وأن يجد في كل ذرة دليلاً قوياً ثابتاً على وجود مبدأ للحياة .

فلو طالع العامل العادي في بدن حيوان لأدرك ـ من النظر إلى أعضاء وخصائص الهيكل العظمي المنظم له وجماله الظاهر ـ أن من المحال أن تتحقق هذه المحاسبات والتقادير والأنظمة الدقيقة بدون مدخلية قدرة كبيرة عالمة ، وأما العالم الفيزيولوجي فإنه يرى آثار العلم والقدرة اللانهائية لتلك الحقيقة المطلقة من طريق إمعان النظر في كيفية أعمال القلب والرئتين والكبد والمعدة ، ووصول الغذاء إلى خلايا جسم ذلك الحيوان .

ومع أن ما يدركه العالم الفيزيولوجي من النظام المعقد ، في بدن الحيوان ، لا يناسب القياس مع ما يتوصل إليه الشخص العادي من مطالعته السطحية الساذجة والبسيطة ، إذ أن الإنسان بعد تسخيره لقمم العلوم وافتتاحه لمغاليق أسرار الطبيعة قد تقدم في معرفة الأنظمة المحيرة خطوات كبرى ، إلاّ أن لكلا هذين نتيجة واحدة من مطالعتهما المختلفة في نوعيتها .

إن العلوم التجريبية لمطالعة الأسرار اللامنتهية لعالم الطبيعة بالإضافة إلى إمكان استفادة كل أحد منها لها ميزة أخرى هي : أن معرفة عجائب الخلقة والنظام الخاص السائد في الطبيعة ، تصل بالإنسان إلى معرفة خالق الطبيعة بالإضافة إلى شطر من صفاته الكمالية ، كالعلم والقدرة اللانهائية له سبحانه .

إن هذا النظام الدقيق الذي هو عبارة عن تقرير العلاقة المناسبة والمعقولة بين أمور مختلفة ، يحكي لنا عن حكمته الواسعة وهدفه في ذلك في الحياة ، في الحيوانات في النباتات ، في الأرضين ، في السماوات والكرات ، في الصخور والبحور والذرات ، علوم وقدرات وبدائع مصنوعات مودعات في صغراهنّ وكبراهنّ على السواء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن فرضية أن يكون العالم الماديّ في حالة تكوين نفسي أي أن يكون في حالة مستمرة من صناعة نفسه بنفسه، إن هذه الفرضية مستحيلة علمياً ، وإن النظرية الماركسية التي تقول : إن العالم المادي في تحول وتطور وتقدم دائم ، إن هذه النظرة تخالف المعطيات العلمية والواقعيات الطبيعية ، إن جميع التحولات والحركات في الجمادات إنما يكون بسبب قوة خارجة أو تبادل داخلي بين أجسام مختلفة ، وفي عالم النباتات إنما يتحقق النموّ والتوسع والتكاثر بالأمطار وأشعة الشمس والتغذية من التربة ، وكذلك الوضع في عالم الحيوانات بالإضافة إلى حركات إرادية ضرورية ومفيدة .

إن انسجام الأشياء والموجودات مع الجو الخارجي لها في هذه الموارد المذكورة واضح بيّن ، وليس لأيّ موجود أن يعصي على القوانين والمعادلات الرياضية المفروضة عليه حسب الخواص المودعة فيه والآثار المترتبة عليه .

ولما يدركه الإنسان من الواقعيات عن طريق حواسه خصائص مختلفة :

فنحن نحسّ جيداً ـ من هذه الخصائص ـ أن موجودات العالم متغيرة متحولة غير ثابتة ، وأيّ موجود ماديّ إما أن يكون في طول عهد وجوده سائراً نحو التكامل أو إلى الانحطاط ، ولا شيء في عالم الوجود ثابت على حالة واحدة .

ومن خصائص الموجود المحسوس : المحدودية ، إن الموجود المحسوس من أصغر الذرات إلى أكبر المجرات بحاجة إلى الزمان والمكان ، إلّا أن بعضها يشغل مكاناً أكبر أو زماناً أطول ، وبعضها زماناً أقصر ومكاناً أقلّ .

ومن خصائص الموجود المحسوس : النسبية في أصل الوجود والكمالات ، وإن كل ما تنسبه إليه من الصفات كالقدرة والعظمة والجمال والعلم فإنما هي من باب المقارنة والمقايسة بسائر الأشياء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن خصائص الموجود المحسوس أيضاً : التعلق والاشتراط فأيّ موجود نفترضه نجده متعلقاً ومشروطاً بأمور أخرى ، ولهذا فهو محتاج إلى تلك الشروط التي تتعلق به ، ولا تجد شيئاً مادياً في هذا العالم يستند إلى نفسه ويستغني عن غيره ، فالفقر والحاجة محيط بجميع الموجودات المادية .

إن العقل والفكر الإنساني الذي يعبر حجاب الظواهر وينفذ إلى أعماق بطون الوجود ـ على خلاف الحواس ـ لا يستطيع قبول حصر الوجود في أمور نسبية محدودة متغيرة محتاجة ، بل إن قوة الفكر الإنساني تحسّ جيداً ، ـ إن صحّ التعبير ـ بضرورة وجود حقيقة دائمة مطلقة غنية خلف ظواهر الوجود تكون مستنداً لجميع الوجودات المحدودة ، حقيقة حاضرة في جميع الأزمنة والأمكنة ، وإلاّ فإن العالم بأجمعه لا يستطيع أن يقف على قدميه بنفسه ، بل حتى على اشتمال صفة الوجود .

فالعالم بحاجة إلى حقيقة مستقلة ، غير مقيدة ، وغير معلقة ، وغير مشروطة بغيرها ، هي تمسك بزمام الوجود في جميع الأمور المحدودة والمشروطة والنسبية ، وإن كل شيء يحتاج إلى أن تملأ هذه الحقيقة المطلقة كيانه بالوجود والحياة ، وفي كل موجود ظاهرة من الحياة والعلم والقدرة والحكمة المطلقة لتلك الحقيقة ، وبهذه الظواهر وفي حدودها نستطيع الحصول على معلومات قيمة عن تلك الحقيقة ، ولكل إنسان ذكيّ مستطلع أن يجد الدليل من هذا الطريق على وجود الخالق .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

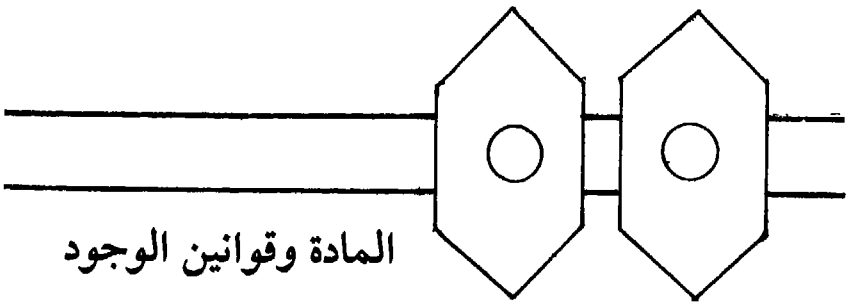

المادة وقوانين الوجود

إن التلازم المتقابل بين المادة وقوانين الوجود ، لا يمكن أن يكون دليلاً على غنى المادة ، بل إن تنوع المنشآت من المادة ، وارتباطها الشديد بعضها ببعض يثبت أن المادة في وجودها ، لا بدّ لها من تبعية سنن وقوانين تسلك بها سبيل النظم والانسجام ، فإن الوجود يستند إلى عنصرين أساسيين هما : المادة والنظام ، ولا بدّ بينهما من الارتباط الوثيق ، وإن العلم المنسجم والمتوازن إنما هو وليد هذه العلاقة الوثيقة بين المادة والنظام .

إن الذين يرون أن المادة غنية ، ويظنون أنها هي التي وجدت لنفسها هذا النظام والغنى كيف يقبلون أن تكون ذرات الهيدروجين والأوكسجين والالكترون ، والبروتون ، وجدت نفسها بنفسها ثم أصبحت منبعاً لوجود الموجودات الأخرى ، ثم صدّرت لنفسها القوانين التي تحكمها وجميع العالم الماديّ ؟ .

إن المادية ترى أن الموجودات البسيطة الدانية تصبح منابع للوجودات العالية المعقدة ، دون أن تتوجه إلى أن المادة التي تعجز في أوج كمالها أي في حالة التفكير العلمي ، عن إيجاد نفسها أو العصيان على قانون من القوانين الحاكمة عليه ، فهي قطعاً أعجز عن إيجاد نفسها أو النظام الوجودي حال كونها بسيطة دنيئة ، فكيف يمكن القول بأن المادة الدنيئة تخلق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموجودات العالية ، وأن يكون لها القدرة على إعطاء الحياة لظواهر أكمل ؟ .

وقد تحقق في علم الأنظمة الجديد : أن الأنظمة المركبة من عناصر حية ذات هدف ، أو الأجهزة المنظمة على أساس برنامج معين ، يمكن أن يكون لها تحوّل متكامل ، إلاّ أنه لا بدّ لها من إمداد خارجي ولا قدرة لها على تطوير نفسها بنفسها ، وأن مواد العالم ما لم تتصف هي بالإرادة والقدرة والشعور ، فلا قدرة لها على إيجاد وإدارة جهاز منظّم متحرّك متطوّر .

إن قانون حساب الاحتمالات و(الانتروبي) يقرر : أن الحركة الجماعية غير المنظمة ، لا يمكن أن تزيد إلاّ تفرقاً وتشتتاً وتقدّماً نحو الهلاك والدمار .

إن قانون الاحتمالات يردّ وجود العالم بالصدفة ، بصورة قاطعة ويرى ذلك من غير المعقول ، وغير الممكن ، إن قانون الاحتمالات الرياضي يؤكد على لزوم قيادة صحيحة للعالم وضرورة برنامج دقيق لإدارته .

إن قانون الاحتمالات يشكل في الواقع صفعة على أفواه القائلين بالصدفة الوجودية ، إذ لو فكرنا في وقوع الصدفة لنظام ساذج بعدد قليل ، لم تكن من غير الممكن ، وإن كانت بعيدة عن الواقع ، ولكنه لا يمكن القول بالوصول إلى صدفة هندسية منظمة تحكي عن انسجام وتوازن متين لهذا النظام العالمي المعقد ، وأن التغييرات الجزئية والساذجة لنظام الوجود لا يمكن أن تكون دليلاً على تغييرات العالم ، وتركيب الذرات فيه لتشكيل هذا التركيب المنسجم المتوازن .

لو كانت الطبيعة في تطوّر وتكامل وتركيب متجدد فلماذا لا تبدي من نفسها اليوم جديداً في التغيير والتطوّر ؟ ولماذا هي متوقفة اليوم عن التحولات الأوتوماتيكية العميقة ؟ .

إن الحوادث الساذجة البسيطة والجزئية منها تؤدي إلى إيجاد صور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محيرة منسجمة ومتناسبة مع أهداف الخلقة ، وهذا بنفسه يدلنا على أن هناك خلف هذه التطوّرات المحيرة قوّة عالمة قادرة هي التي أبدعت هذا النظام المعجب للكائنات ، وهي وراء هذا التطوّر العجيب لعالم الطبيعة ، وهي التي ترسم هذا النظام للوجود .

إن هذا الانسجام والترابط الوثيق بين الملايين من ظواهر الطبيعة والعلاقة بينها وبين ظاهرة الحياة في الأحياء ، لا يمكن أن يفسر تفسيراً معقولاً إلاّ بصورة واحدة ، هي : أن نفترض لهذا النظام العظيم خالقاً هو الذي قرر هذه العناصر المختلفة في هذه الكرة الترابية ، بقدرته غير المحدودة واللامنتهية ، ونظم برنامج كل عنصر من هذه العناصر ، وهذه الفرضية تطابق كل ما في ظواهر هذه الطبيعة من ارتباط وانسجام وتوازن .

أما إذا لم نقبل هذه الفرضية ، فهل يمكن لنا أن نحتمل ظهور هذا الانسجام بين أنواع الظواهر البديعة بصورة صدفة غير مستهدفة ؟ وكيف يمكن القول بتساوي هذا الافتراض مع افتراض خالق مستهدف مدبّر عالم مطلق ؟

لو لم يكن وجود لهذا العالم بما فيه من عجائب تحيّر العقول ويعجز العلم البشري عن درك أوضاعه المحيّرة ، وكانت الدنيا تتلخص في موجود ذي خلية واحدة ، حينئذٍ كان احتمال وجود هذا الموجود الحقير ونظمه صدفة على أساس حساب الاحتمالات طبقاً لمحاسبات (شارل أوزن كوى) يعطي رقماً رياضياً لا يقدر الفكر الإنساني على استيعابه .

يقول (باشميل) . « أنتم الماديّين تعترفون بحركات ودوران الشمس ، والأرض وسائر المجموعة الشمسية ، وتعترفون أيضاً بالدقة الرياضية غير المتخللة في هذه الحركات ، وتذعنون ـ كما تزعمون ـ بعدم وجود يد مدبّرة خلف هذه الحركات والمتحركات الكبيرة ، والعظيمة ، والدقيقة المحكمة والمنظمة ، فلا بدّ لكم من أن تقولوا بأن المجموعة الشمسية هي التي أوجدت نفسها بنفسها وجعلت لها هذا النظام المعقد الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتحرّك هي على أساسه ، ثم هي التي جعلت لنفسها جهاز سيطرة دقيق يحجزها عن الاصطدام أو الانحراف عن مسيرتها وعن عروض مانع أو رادع الها في خلال حركتها بهذه السرعة المذهلة في الفضاء ! أنا شخصياً لا أقبل أن يدعي إنسان هذه الدعوى ، وهو يدّعي لنفسه الحرمة والكرامة » .

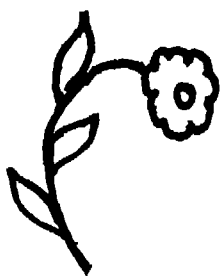

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

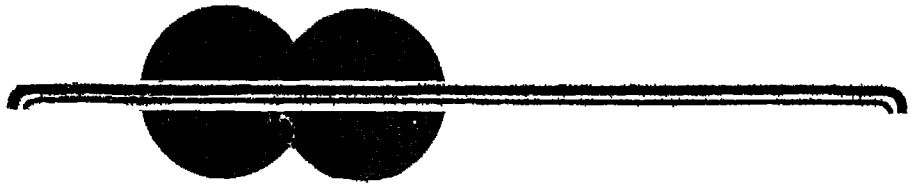

توازن وانسجام في الطرفين

إن جميع أجزاء الوجود والموجودات ، تتبع في تركيبها الداخلي وفي علاقاتها بعضها مع بعض نظاماً متيناً ، فإن تركيبها وعلاقاتها منظمة بحيث تساعد كل منها الأخرى في أهدافها وغاياتها وخطوطها ، وبذلك يتمكن كل موجود من السير نحو الهدف والمقصد المعين له بالإفادة من علاقته بسائر الموجودات ، وبتأثيره وتأثره المركوز في تركيبه الخاص .

إن أهم ما تقوم به العلوم المادية هو التعرف على ظواهر وكيفية تركيب هذا العالم ، أما التعرّف على ماهية وحقيقة المخلوقات والظواهر فذلك خارج عن متناول هذه العلوم .

فمثلاً غاية ما لعالم فلكي من الفنّ العلمي هي أن يعرف الكرات الكثيرة في الفضاء الثابت بعضها نسبياً، والدائر المتحرّك بعضها الآخر ، ويعرف كيف أن قوة الجاذبية تمنعها من اصطدام بعضها بالآخر ، وتصون توازنها فيما بينها . ويقيس الفواصل بينها وبين الأرض وسرعة حركتها ومقدار حجمها بالمقاييس العلمية ، إلّا أن نتائج هذه المعرفة والتجارب لا تتجاوز تفسير ظواهر الخلقة ، فإن التجربة تعجز عن درك حقيقة قوة الجاذبية وماهية الجاذبية المركزية وكيفية حدوثها وخلقة هذا الجهاز العظيم .

إن العلماء الطبيعيين ، يفسرون السيارة أو الماكنة من دون أن يعرفوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفسير القوّة المحرّكة لهذه السيارة أو الماكنة ، ولهذا فإن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تفسّر وتحلّل ملايين الحقائق ، المودعة في الطبيعة والنفس الإنسانية ، إن هذا الإنسان الذي توصل حتى إلى باطن الذرّة بقي متحيراً أمام الأسرار المعقدة والغامضة لذرة حيوية ، وأخيراً عجز أبطال العلوم الطبيعية عن تسخير وفتح هذه الغوامض المعقدة .

* * *

إن من عجائب الخلقة ذلك الانسجام والتوازن المتبادل بين ظاهرتين من ظواهر الطبيعة غير متعاصرتين ، إن هذا الانسجام هو على نحو التطلع والتهيؤ في جهاز ظاهرة سابقة لحاجات ظاهرة قادمة بعدها .

وبإمكاننا أن نرى أحسن نماذج هذا الانسجام بين الأم وجنينها . إن الأم سواء في الحيوان أو الإنسان تبدأ هرمونات الحليب لديها بالعمل بمحض بدء الحمل لتحضير أعذب غذاء وأجمعه للطفل مجارية لنموّ الجنين في الرحم حتى يوم الميلاد ، فكلما ينمو الجنين تزداد كمية هذا الغذاء عند الأم ، حتى إذا تهيأ الجنين للدخول إلى هذا العالم الكبير كانت هذه المواد الغذائية المناسبة لجميع حاجات الجنين الجسمية محضرة تماماً .

إن هذا الإنتاج المحضر منسجم تماماً مع مدى قدرة جهاز الهضم لدى الطفل ، وهو مدّخر في مخزن مناسب مستور هو ثدي الأم الحنون ذلك المخزن المعبأ في وجود الأم ، قبل تركيب جسد الجنين في رحم الأم بأعوام عديدة ، ولتيسير أمر تغذية الوليد ثقب موضع الإفادة من هذا المخزن بثقوب صغيرة ظريفة ملائمة لفم الوليد كي لا يدخل الحليب إلى فمه بحيث لا قدرة له على استيعابه ، وكي يقدر الطفل على امتصاص ما يخرج منه .

وكلما نما الطفل حصلت في الحليب تغييرات مناسبة لسنّ الوليد ، ولهذا يرى علماء الطب والصحة أن رضاع الوليد الجديد من امرأة ولدت قبل مدة كثيرة ليس رضاعاً مناسباً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه علينا : هذا التخطيط السابق على أوانه في جسد موجود لرفع حاجات موجود آخر في المستقبل ، ألا يعدّ عملاً معدّاً على أساس من الدقة والتدبير ؟ وأليس هذا التخطيط للمستقبل والظرافة في العمل ، والانسجام المحيّر بين موجودين من عمل قادر عالم على الإطلاق ؟ وأليس سمة بارزة على تأثير قدرة مطلقة في الكون من مخطط يهدف إلى استقرار الحياة واستمرارها وتطورها ؟ .

إن المحاسبات الدقيقة التي نراها في جميع الوحدات المكانيكية ، والصناعية نعلم بوضوح أنها إنما هي نتائج أفكار عملت في سبيل تنظيمها وتركيبها ، وبموجب نفس هذه المشاهدات العينية نستطيع الوصول إلى نتيجة كلية فلسفية هي : كلما وجد نظام تركيبي على أساس من الحساب والموازنات الدقيقة ، كان علينا أن نفتش خلفه عن عقل وفكر وإرادة .

إننا نجد في الموجودات الطبيعية تركيباً وتأليفاً أدّق وأعجب مما نراه من الدقة الخاصة في الوحدات الصناعية ، بل إن التدبير المشهود في الطبيعة على مستوى عال غير قابل للمقارنة والمقايسة بدقائق المصنوعات الإنسانية ومنتوجات الأفكار البشرية .

إننا حينما نجد ـ من دون شك أو ترديد ـ نظامنا الصناعي نتائج أفكار وإرادات ، ألا ينبغي لنا أن نرى العقل والإرادة والعلم اللانهائي من نافذة الهندسة والمحاسبات الدقيقة في الطبيعة ؟

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ظاهرة طبيّة تستحق التقدير

إن علم الطبّ في العصر الحاضر بلغ مرحلة من التقدّم يتمكن فيها على إخراج كلية من جانب إنسان ، ووضعها في جانب إنسان آخر قد سقطت كليته عن العمل وهو في طريقه إلى الموت ! إن هذا التقدّم الطبّي ليس نتيجة عمل طبيب واحد لوحده ، بل إنما هو تراث طبي قد تعود أصوله إلى مئات بل آلاف السنين ! إذن فعملية إيصال الكلية الموضوعة إنما هي نقطة في الواقع في آخر جملة طويلة ، قدم لها العلماء السابقون المقدّمات ، والخلاصة : إن أفكار العلماء في مئات بل آلاف السنين لا بدّ أن تتراكم شيئاً فشيئاً كي تصل في النهاية إلى عملية جراحية ناجحة في الكلى

وهنا نطرح هذا السؤال : هل أن تبديل إطار مطّاطي معطوب لعجلات سيارة ركاب بإطار سالم يحتاج إلى مهارة وعلمية أكثر أم صنع نفس الإطارات المطاطيّة لعجلات السيارات ؟ وأكرر : هل أن صنع عجلة مطّاطية أهم أو تبديل مكانها أو معطوبها بسالمها ؟ .

إن تبديل كلية إنسان مهما كان مهماً في عالم الطبّ ، والعلاج والعمليات الجراحية ، لم يكن في المثل بأكثر من تبديل عجلات السيارات فليس لتبديل الكلية أمام صنعها وأسرارها ودقائقها ومحاسباتها العجيبة أيّ قيمة تذكر ! .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من هو ذلك العالم الواقعي الحق ، الذي يتمكن أن يقول : إن تبديل كلية بكلية نتيجة معرفة بشرية لآلاف الأطباء في طول قرون متمادية ، ولكن صنع نفس الكلية ليس مظهراً لذلك العقل الخلّاق ، بل هو من نتائج الطبيعة التي ليس لها من العلم والوعي حتى بمقدار طفل في الابتدائية ؟! أليس تصور وافتراض وجود عقل مدّبر لخلقة الطبيعة ونظامها أقرب إلى العقل والمنطق من افتراض خالقية المادة الفاقدة للعقل والشعور والوعي ، والتي لا ابتداع لها ولا اختراع ؟! .

لا شكّ أن الإيمان والاعتقاد بحكمة الخالق أقرب إلى العقل والمنطق من الإيمان بالمادة غير المدركة وغير الواعية التي لا تستطيع أن تقدّر وتدّبر ، إذ لا نتمكن نحن أن نهب كل تلك الخصائص والأوصاف العقلية التي يحملها هذا العالم لخالقه وأهمها التدبير والإرادة ، نحن لا نتمكن أن نهب هذه الأوصاف للمادة .

كتب (آنشتاين) في كتابه[1] يقول : « إن العالم المصلح يعتقد بقانون العليّة لعالم الوجود ، ولكن ما هو مذهب هذا العالم ؟ إن مذهبه تحيّر غريب من النظام العجيب والدقيق لهذه الكائنات ، هذا النظام الذي قد ترتفع الأستار عن بعض الأسرار بحيث لا يعدّ جميع المساعي والأفكار البشرية المنظمة إلا كصور باهتة لذلك النظام الدقيق » .

* * *

(١) الدنيا التي أراها (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

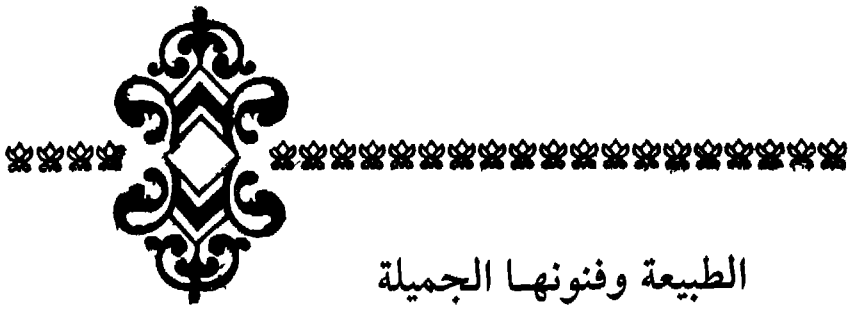

الطبيعة وفنونها الجميلة

انظروا إلى حشرة الملاريا ، ولا يجب أن تمتلكوا لذلك الميكروسكوبات ، بل إنكم ستصلون إلى ذلك النظام الدقيق والمعقد الموجود في هذه الحشرة الصغيرة بنفس هذه النظرة العادية بالعين المجرّدة .

إنكم سوف تجدون الأجهزة والأدوات والوسائل اللازمة والظرافة العجيبة في بواطن وظواهر هذا الموجود الظريف الضعيف ، من جهاز الهضم والدورة الدموية والجهاز العصبي والتنفس ، ولديه مختبر جاهز سريع ودقيق ، والآن نسأل : كم هو حجم مختبركم الكبير ؟ وكم صرف في تكوينه من الطاقات الإنسانية والفكرية والاقتصادية ؟ .

والآن قايسوا بين مختبركم ومختبر هذه الحشرة الصغيرة ، إنه ليس لمختبركم ما لمختبر هذه الحشرة من الدقة والسرعة والظرافة ، وكم تصرفون أنتم في مختبركم من الزمان والأفكار والطاقات البشرية حتى تصنعوا عقاراً لعلاج لسعة هذه الحشرة ؟ .

حينما تحاولون أن تصنعوا شيئاً كم يجب عليكم أن تصرفوا له من الفكر والمراقبة ؟ أفحينما ترون في هذا العالم المصنوع هذا النظام الحكيم بهذه الدقة والظرافة ، ألا يكفي ما ترونه من الإبداع العقلي الخلّاق سنداً على الحكمة الإلهية البالغة ؟! .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أئذا ما حسبنا هذا العالم بكل ما فيه من هندسة ودقة وحركة منظمة وليد مادة جاهلة ، كان ذلك معرفة علمية ؟! بل إن هذه الظواهر إنما تفصح عن النظام والانضباط لا عن اللاهدفية العمياء .

إننا إذا ما رأينا أحياناً نقاطاً من الضعف في الطبيعة لم يكن ذلك دليلاً على النقص في كتاب الخلقة الإلهية ، بل إنما نحن نرى تلك النقاط لعجز إدراكنا وأفكارنا عن التوصّل إلى الغايات منها ، ولقصر في أفهامنا عن معرفة الأسرار ورموز عالم الوجود .

أئذا ما عجزنا عن معرفة وظيفة مسمار لولبي خاص في جهاز كبير هل يحق لنا أن نتهم مهندس ذلك الجهاز بالجهل ؟ أم أن ذلك من ضيق رؤيتنا حيث لا قدرة لنا على معرفة الهدف من تلك اللولبة ؟ .

أفيمكن للصدفة أن تعمل عمل العلم ؟ عملاً لا تشوبه أيّ شائبة من جهل أو ريب ، لو كان عالم الطبيعة مخلوقاً من غير إرادة عالمة ـ كما يزعم الماديّون ـ فلماذا الإنسان للتقدّم في مهامه يصرف طاقاته في سبيل الاستزادة من العلوم ، ولماذا لا يجاري الطبيعة فيستزيد جهلاً ؟! إن الحقيقة التي تقود وتهدي كل هذه الأفعال والانفعالات الكونية المنظمة اللانهائية لا يمكن أن ينكر منها الهدف والإرادة ، وأن يظن أن حدوث هذه الأفعال والانفعالات المتسلسلة يتحقق بدون أيّ تنظيم إراديّ إلهيّ .

سنون من المساعي المتعبة من قبل علماء الكيمياء وآلاف البرامج العلمية الدقيقة إنما استطاعت أن تصل بهم إلى تركيب عدد من المواد الكيمياوية الآلية التجريبية الساذجة البدائية التي لم يكن فيها أيّ أثر من الحياة بالمعنى المعروف .

ومع ذلك عدّ هذا انتصاراً علمياً موفقاً وقيماً لهؤلاء العلماء واستحق تحسين وتقدير المحافل العلمية ، ولم يدّع أحد منهم أن هذه التركيبات البدائية الناقصة التجريبية إنما حدثت على أساس الصدفة من دون برنامج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دقيق موجه ، في حين أن جماعة من نفس هؤلاء العلماء ـ الماديين ـ ينسبون جميع الموجودات والأجهزة المعقدة فيها وأسرارها إلى عوامل عمياء مادية ! الحقيقة والواقع أن هكذا أسلوب من الفكر ليس إلاّ ظلماً للعقل والمنطق والفكر وعداء للحقيقة .

أمعنوا النظر في عمل مرتبي الحروف في المطابع كيف يجيدون النظر في ترتيب حروف صفحة من كتاب ثم يعثرون على أغلاط جزئية نسبياً حينما يجّددون النظر فيها للتصحيح ، فلو كان مرتّب الحروف بدل أن يرتب الحروف بالترتيب الدقيق يأخذ حفنة منها فينثرها على الصفحة ، أفهل يمكن أن تظهر لنا من هذا العمل صفحة منظمة من حيث الحروف والكلمات والمعاني بدون أيّ غلطة ؟! .

وأوهى من هذه الدعوى من يقول : خرج بالدفق مئة كيلو من الرصاص الذائب من فوهة حديدية وجدت منها حروف ،ثم ترتبت هذه الحروف على صفحة معدنية بترتيب خاص منظم على أثر عاصفة هوجاء ، وعلى أثر ذلك وجد لنا كتاب في ألف صفحة فيه مباحث علمية دقيقة بأسلوب عذب وجذاب من دون أي غلط ؟! .

أفهل يمكن لأحد أن يدافع عن هذه الفكرة ؟! .

فماذا يقول الماديون بشأن ظهور هذه الصور المختلفة والمتنوعة من حروف هذه الطبيعة ، وبشأن العلاقات المعقدة والدقيقة السائدة على الكرات السماوية والموجودات الطبيعية وجميع المواد السابحة ؟! .

يقول عالم الأحياء والبيئة المعروف : (رذر فورد) : « إن تحقق الصدفة لتجمع ذرات الكاربون والأوكسجين والآزوت والهيدروجين لتركيب وحدةٌ بروتينية غير قابل للتصور ، كما هو الشأن فيما إذا نشرنا في الفضاء رزمة من أوراق اللعب ثم قلنا إنها ترتب على الطاولة منتظمة من حيث النجوم والألوان ! هذا محال قطعاً ، وحتى لو تكرر هذا العمل لمرتين في طول تأريخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البشرية في ثانية واحدة لم يكن من الممكن تحقيق الصدفة فيما مضى »[1] .

هل أن حروف التكوين (الذرات ومركباتها) أقلّ أهمية من حروف المطابع ؟ وهل يمكن الإذعان بأن هذه الحروف الطبيعية المنظمة والهادفة بهذه الهندسة الدقيقة وهذه الصور المحيّرة لكتاب الطبيعة كلها وليدة مادة جاهلة غير هادفة ؟! وليس في هذا الوجود قدرة قاهرة حكيمة منظمة ؟! كلا بل إن جميع ظواهر الوجود إنما هي مصنوعة لتلك القدرة الشاعرة والواعية في الطبيعة الحية .

إن هذه القوة المودعة في باطن المادة لو لم تكن أثراً من ذلك العقل الحاكم على العالم فما الذي يهدي هذه المادة إلى الانضباط والانسجام المحيّر ؟! .

لو كانت تلك القوة غير مريدة وغير واعية فلماذا لا تصل إلى مرحلة غير منظمة ؟ ولماذا لا تجر تركيب هذه المواد إلى الاصطدامات المحطمة ؟ .

إن الإيمان بالخالق يعطي المعنى لجميع هذه الموجودات ، ويهب المعنى لجميع هذا العالم ، وإن أولي الألباب والأفكار العميقة يدركون أن هناك قدرة مطلقة عظيمة للغاية تحكم هذا الوجود وتحفظ نظامه عن الانفراط .

* * *

(١) معارف دنيا العلم (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصوّر الموجود المطلق

كان كل إنسان في القديم يقود مركوبه بنفسه ، وكان قد اعتاد في طول الأدوار المختلفة على أن يرى صاحب كل ملك أو مزرعة أو مؤسسة أو إدارة حاضراً مشتغلاً بعمله ، وقد تغيّر الوضع في هذا الزمان ، فقد توصل الإنسان اليوم إلى الأقمار والماكنات الالكترونية الأتوماتيكية والطائرات من دون طيار ، ويعلم كل أحد أنه بالإمكان اليوم صنع جهاز مجهّز يبرز ردود فعل متناسبة أمام الحوادث من دون أن يرى صانعه أو يعرف .

وعلى هذا فلا حقّ لنا أن ننكر الخالق لأننا لا نرى يده في الأمور والأشياء لقصر في أفكارنا ومعارفنا .

إن صانع القمر المصنوعي أو الصواريخ يهدي وينظم سيرها من داخل المحطّات الأرضية المجهزة بوسائل الأجهزة الجوية المعقدة ، إن يد الله في الطبيعة وإن كنا لا نراها بأعيننا الظاهرة ، لكن مع ما نشاهده من الظواهر والآيات البيّنات التي هي من آثار عظمة خالق العالم وصانع الإنسان ، هل بإمكاننا أن ننكر مدبّر هذا العالم الذي له القدرة والإرادة المطلقة والمنظم لجميع حركات هذا العالم ؟! .

صحيح أن إمكاناتنا لمعرفة وجود لا مثال له في عالم الحسّ والشعور والذي تقصر التعبيرات البشرية عن وصفه الدقيق ، إمكاناتنا محدودة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومصباحنا لإضاءة هذا الطريق باهت ، وتتراجع أضواؤه مصطدمة بجدران المحدوديات المادية .

إن علاقاتنا نحن إنما هي بظواهر الحياة ، والذي يرتسم في أذهاننا هو عين من أعيان هذا العالم ، إلاّ أننا لسنا عاجزين عن معرفته وتصوره بصورة من الصور ، وليس بيننا وبين المعرفة اللازمة سدود وموانع .

إن بعض المشككين المعرضين عن التفكير السالم النابع عن الفطرة السليمة والمتعودين على الآثار الطبيعية ، ينتظرون كل حين وقوع المعاجز من جانب الله تعالى فاطر هذا النظام الجاري ، لكي تهب المعجزة إيماناً لهؤلاء ، ولكي يذعنوا بوجود الله .

ويغفل هؤلاء عن حقيقة : أن الآثار الجديدة التي تبدو من قبل الله سبحانه تصبح بعد مدة قصيرة عادية طبيعية بحيث لا تجلب أيّ انتباه أو دقة ، إن جميع الظواهر وإن كانت أجزاء من نظام الطبيعة إلا أنها كانت في بدايتها من خوارق نظام الطبيعة ، ولكنها حيث تكررت كثيراً في صعيد العالم أصبحت عادية طبيعية .

بينما الوجود غير المرئي وغير المحسوس المليء بصفات الجلال والجمال والقداسة والعظمة ، هكذا وجود يجعل النفوس دائماً تحت تأثيره ويجذب إلى نفسه كل اهتمام وتوجّه ، ويجعل الإنسان دائماً ينظر إليه ويأمل منه كل شيء ، إن تسلط روح اللجاج والحكم غير المنطقي هو الذي يقيد الإنسان بسلاسل المحدودية ، وإلاّ فإن أيّ موجود في نظام الوجود كافٍ لإقناع أولئك الذين يفرغون عقولهم من فكرة اللجاج والمكابرة والإنكار غير المبرهن .

يقول الدكتور (المرو مورد) المحقق والكيمياوي المعروف : « أنا كرجل كيمياويّ أعتقد أن الله يراقب ويحافظ على العالم دائماً ، وأن دوام وثبات القوانين الطبيعية نتيجة لهذه المراقبة الإلهية ، أنا حينما أدخل إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المختبر أعلم من دون أيّ شكّ أو ترديد أن القوانين التي كانت ثابتة يوم أمس ، لا تزال ثابتة اليوم وبعد اليوم إلى يوم القيامة، وإلّا فإن حياتي في المختبر لا تكون إلّا حياة حيرة وشكّ وقلق واضطراب ، ولم نحصل على أيّ نتيجة أبداً ، فمثلاً لو ملأت إناء ماء قراحاً وجعلته على النار وفار علمت أن حرارته بلغت المئة درجة (سانتيغراد) ولا حاجة في ذلك إلى المقياس ، إذ أعلم أن ضغط الجو إذا بلغ (٧٦) سانتيمتراً بالنسبة إلى الزئبق فار الماء بدرجة مئة (سانتيغراد) وإذا لم يبلغ ضغط الجو (٧٦) سانتيمتراً على الزئبق كانت الحاجة إلى حرارة أقل لغليان الماء وتبدله بالبخار ، وكانت درجة الحرارة للغليان أقل من المئة ، وإذا كان ضغط الجو أكثر من (٧٦) سانتيمتراً على الزئبق صعدت درجة الحرارة أكثر من مئة درجة .

ولي أن أكرر هذه التجربة كلما أردت ، وإن علماء الكيمياء حينما يجرون هذه المقايسة بين الضغط والحرارة بذكائهم في أعمالهم اليومية تزيد في حيرتهم .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى سائر القوانين الطبيعية ، والمنطق المستقيم يقتضي أن يكون هناك وجود مدبّر أوجد هذه القوانين وهو الله سبحانه ، إن الاعتقاد بوجود خالق للعالم هو الجواب الصحيح الوحيد على خلقة هذه الطبيعة ونظامها الثابت والمستمر »[1] .

* * *

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٢٣٩ (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما مبدأ الوجود فهو غني عن علة لوجوده

إن أتباع المذهب المادي يبدون حساسية خاصة بالنسبة إلى غنى الله عن العلة الوجودية ، ويقولون : إذا نحن أذعنّا أن يكون الله هو واجب الوجود في العالم وأن الموجودات تستمد وجودها منه سبحانه ، فما هي العلة التي أغنته عن الخالق ؟ وبالتالي ما هي علة وجوده .

قال (برتراند راسل) في إحدى خطاباته في جلسة لجمعية وطنية لندنية غير دينية : « في سنّ الثامنة عشرة كنت أقرأ حياة (استوارت ميل) المكتوبة بقلمه ، جلبت انتباهي جملة لميل يقول فيها : « لم يجبني أبي على سؤالي إذ ذاك : من الذي خلقني ؟ » ، لأنه كان قد طرح سؤالاً آخر هو : « من الذي أوجد الله » . ثم أضاف راسل يقول : كذلك اليوم أنا أفكر في هذه الجملة الساذجة ، وأراها أنها أبدت السفسطة في بيان العلة الأولى ، فكما أن لكل شيء علة وسبباً ، لا بدّ لوجود الله أيضاً من علة ودليل ، ولو أمكن لشيء أن يكون بلا دليل ولا علة لأمكن أن يكون هو الله أو العالم ، وعلى هذا فالبحث عن الله يفقد اعتباره »[1] .

---

(١) لماذا لست مسيحياً /ص ١٩ (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد عجز حتى بعض الفلاسفة الإلهيين الغربيين عن حلّ هذا المعضل ، يقول (هربرت اسبنسر) الفيلسوف الانجليزي : « المشكلة هي أن العقل البشري يفتش لكل أمر عن علة وهو يرى استحالة الدور والتسلسل ، ولا يرى علة بلا علة ولا يفهمها ، كما يقول القسيس للأطفال : إن الله هو الذي خلق هذه الحياة الدنيا ، فيسأل الطفل : فمن خلق الله ؟ »[1] .

وكتب في مكان آخر يقول : « إن الدهريين يحاولون أن يقولوا بأن العالم قائم بذاته بلا علة ، ولكننا لا نتمكن من الإيمان بشيء بلا علة وبلا أول ، والموحد يخطو في هذا خطوة واحدة إلى الوراء ويقول : إن الله هو الذي خلق العالم ، والطفل يسأل سؤالاً آخر لا جواب له ، هو : من الذي خلق الله ؟ »[2] .

ونحن نردّ هذا الإشكال إلى نفس الماديين ونسألهم : لو تتبعنا سلسلة العلل وصلنا إلى العلة الأولى ، ولا نقول : هي الله تعالى ، بل هي المادة كما تقولون ، فقولوا : من الذي خلق المادة الأولى ؟ .

أنتم المذعنون بقانون العلية أجيبونا : كل شيء من المادة الأولى ، وهي من أين ؟ .

تقولون : إن مبدأ الحوادث يرجع إلى المادة والطاقة الأولى .

ونسأل : ما هي علة وجود تلك المادة والطاقة الأولى ؟ ومع النظر إلى استحالة تسلسل العلل والمعاليل إلى ما لا نهاية لا جواب لهم إلّا أن يقولوا : إن المادة موجود أزليّ أبديّ لا حاجة لها إلى علة ولا أول لها ولا آخر ، هي قديمة لا نهاية لها ، ووجودها من طبيعتها وماهيتها .

إذن فالماديون يذعنون بأصل الأزلية ، ويعتقدون بأن الأشياء كلها من

---

(١) سير الحكمة في أوربا : ص ١٦٢ (بالفارسية) .

(٢) تاريخ فلسفة ويل دورانت/ ص ٤٦٧ - ج ٢ . (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المادة الأزلية ، وأن الوجود من طبيعتها ، من دون أن تكون هي بحاجة إلى موجد خالق .

ويصرح (راسل) بهذا في خطابه الآنف الذكر ويقول : لا دليل لنا على أن يكون لهذا العالم مبتدأ وأول ، بل إن التفكير في أن يكون للأشياء مبتدأ إنما هو من نقص في قدرة تصوراتنا[1] .

كما أن (راسل) يرى أن المادة أزلية ، كذلك يقول الإلهيون بأزلية الله سبحانه ، إذن فالقول بوجود الأزلية نقطة مشتركة بين الفلاسفة الماديين والإلهيين ، وكلتا الطائفتين تذعنان بضرورة العلة الأولى ، إلاّ أن نقطة الخلاف هي أن الإلهيين يرون أن العلة الأولى حكيم مدبّر قادر ومريد هو الله سبحانه ، بينما يرى الماديون أن العلة الأولى لا عقل لها ولا وعي ولا إدراك ولا إرادة ، إذن فرفع اليد عن القول بالله لا يرفع الإشكال .

إن المادة متغيرة متحركة بحركة داخلية ذاتية ديناميكية ، والأزلي لا يمكن أن يكون كذلك ، إن المادة لا يمكن أن تجتمع ومعنى الثبوت الذاتي ، والثابت بالذات لا يمكن أن يكون متحركاً ومتحولاً .

إن الماركسيين المعترفين بأن المادة تنفي نفسها بنفسها (آنتى تز) كيف يجمعون بين هذا وبين أزليتها ؟ إن الأزلية تعني الثبوت الذاتي وامتناع الفناء في حين أن المادة في ذاتها ذات قوى واستعدادات نسبية تحيى وتموت ، إنّ الأزلية لا تلائم المادة في وجودها ولوازم ماهيتها ، أما الإلهيون فإنهم حينما يقولون بوجود أصل ثابت مطلق إنما يدّعون ذلك لوجود قابل للثبات والإطلاق بعيد عن خصائص المادة بالمرة ، لا للمادة غير القابلة بطبيعتها للبقاء والأزلية والدوام والتي لا تنفك عن الحركة والنسبية والمنافية بذاتها للكمال والإطلاق التام .

* * *

(١) لماذا لست مسيحياً : ص ٢٠ (بالفارسية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموجود الفقير يحتاج إلى علّة

نحن حينما نقول : لا يمكن وجود موجود بدون علة ، إنما نعني ذلك الموجود الناقص الذي مصيره وبقاؤه بيد علته،لاكل موجود؛حتى ولو كان واجداً لواقعيته من نفسه ولم يكن فيه أيّ ظاهرة من ظواهر النقص والمحدودية .

إن العلة الأولى إنما كانت علة أولى من حيث إن وجودها كامل غير محدود ، وغير متأثر بأيّ عامل من العوامل ، بل هو وجود غير مشروط وغنيّ عن كل علاقة ورابطة ، ولا أثر فيه للتغيير والتحوّل .

وليس معنى كون الله علة أولى غنياً عن علة أن يكون مساوياً لسائر الموجودات من حيث الحاجة إلى العلة ، ولكنه خرج عن قانون العلية استثناء وتخصيصاً ، إذ ليس هو معلولاً كي يحتاج إلى علة ، وليس حادثاً حتى يحتاج إلى محدث ، بل إنّ جميع الصور والظواهر والحوادث هي من ذلك الموجد الأزلي ، إنّ قانون العلية إنما هو نافذ بالنسبة إلى الموجودات المسبوقة بالعدم .

وكذلك ليس معنى العلة الأولى أنها هي التي أوجدت نفسها بنفسها ، وأنها هي علة نفسها ، إن سبب حاجة المعلول إلى العلة إنما يتبع نوع وجوده وكيفيته ، إن الموجود لا يحتاج إلى علة لوجوده بل إنما يحتاج إلى علة لكون وجوده متعلقاً ومرتبطاً بغيره ، وإلّا فإن الموجود غير المشروط وغير المرتبط